جذور النكتة الحمصية

حرب الأيديولوجيا الفكاهية
وليتورجيا المجانين المندثرة

جورج كدر

جذور النكتة الحمصية

جذور النكتة الحمصية
حرب الأيديولوجيا الفكاهية وليتورجيا المجانين المندثرة
(طبعة مزيدة ومنقحة)

تأليف: جورج ممدوح كدر

لوحة الغلاف: علي فرزات
تصميم الغلاف: فادي العساف
ISBN: 978 - 9933 - 540 - 56 - 2
الطبعة الأولى: 2009
الطبعة الثانية: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House twitter.com /AdwanPH

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة دون موافقة الناشر الخطية.

جورج ممدوح كدر

جذور النكتة الحمصية

حرب الأيديولوجيا الفكاهية
وليتورجيا المجانين المندثرة

(طبعة مزيدة ومنقحة)

المحتويات

مقدمة الطبعة الجديدة: عن حمص وأصل التسمية 13

مقدمة الطبعة القديمة 17

العصبيات العربية بين حرب السيف وحرب الهجاء 21

العصبية والهجاء 23

واقعة صفين، والنقمة على أهل حمص 25

المتدينون ببغض علي «الناصبيون» 27

العرب والعصبية في بلاد الشام 30

الحجاز- دمشق - العراق والانتقال إلى اللهو 32

حرب الأيدولوجية الفكاهية 39

حمص والتعصبات الطائفية/ القبلية 39

- الرواية الشعبية 40

- نعوت وألقاب 42

- نعوت وألقاب من العالم 44

- تيمورلنك، سيد الدمار 45

- الصراع السني/ الشيعي 47

- صراع القيسية واليمانية 50

أهل حمص في نظر الجغرافيين والمؤرخين 53
الأحمق الحمصي في الأدب العربي 63
ابن الجوزي وأهل حمص 65
ابن العبري (625-685 هـ) 70
الأبشيهي (790-850 هـ)..... 71
المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية 76
حمص وحماة «الأعداء الحميميون» 76

ليتوروجيا عيد المجانين المندثر 79
مجاديب أم مجاذيب؟ 79
يوم الأربعاء 81
أعياد الربيع القديمة في حمص 90
- خميس الضايع 93
- خميس الشعنونة 93
- خميس المجنونة 94
مكانة حمص الدينية 95
إله الشمس الحمصي 97
طقوس العبادة..... 100

سمعان المتباله لأجل المسيح 102
فلسفة سمعان 103
حمص «كعبة» اللهو..... 105

مدخل إلى عالم الضحك 109
في منشأ الضحك..... 111
حول النكتة..... 117

من هو الرامي أو مبدع النكتة أو صانع النكتة: 119
المزاج الجمعي 121
تعريف خاص للنكتة 121
وجهات نظر حول النكتة الحمصية 125
نظرية بو علي ياسين حول النكتة الحمصية 126
تركيبة الشخصية الحمصية 128
وجهة نظر... خلاصة ما سبق 130
الحمصي في فضاء الإنترنت 143
ملاحق 157
ملحق 1: العاصمة العالمية للضحك 159
ملحق 2: قراءة نقدية لكتاب النكتة الحمصية 165
ملحق 3: حول الاهتمام الإعلامي بحملة إعلان حمص عاصمة عالمية للضحك 175
تصالحوا مع الضحك! 179
نعم لحمص عاصمة عالمية للضحك! 181
مراجع البحث 183

إلى

أبي ممدوح وأمي صباح

أخي سامر وأختي ماريت

إلى

زوجتي لور وابنتيَّ ليليان وأليسار

إلى

الدكتور اسكندر ديب

أهدي أول أعمالي

إهداء الطبعة الجديدة

إلى جيل سوريا القادم...

كل الشكر والتقدير للصديق فنان الكاريكاتير العالمي السوري
علي فرزات لإهدائه غلاف هذا الكتاب

مقدمة الطبعة الجديدة
عن حمص وأصل التسمية

بمنطق علم اجتماع ابن خلدون، فإن الحضارات كائن حي تُولد وتشبُّ وتهرم وتموت، كذلك هو حال المدن جسد تلك الحضارات.

زيادةً على ما يقول ابن خلدون، يمكن للحضارات والمدن أن تحقق خلودها كأبطالنا الذين نحرص على تقديسهم، فهناك مدن تولد ولا تهرم أبداً، لأنها خالدة.

يمكن أن نخترع أبطالنا وأنبياءنا ثم نخلدهم في كتبنا، أما المدن فإنها تحقق خلودها المادي بأحجارها/ آثارها، وتحقق خلودها الروحي بفنونها وأفكارها، إنها لعبة المادة والروح على طريق الخلود.

عبر تاريخها الطويل على مدى 4500 عام، دخلت مدينة حمص في لعبة ثنائيات الخلود تلك، كانت هذه المدينة التي اتشحت بالسواد «كعبة» للشقيقين الأعداء، كعبة أهل الدين والتصوف ممن يبحث عن موطئ قدم بين «سكان السماء» في عالم اللذة المسمى الجنة، وكعبة للّهو والقصف لمن يمارس لذته بين «سكان الأرض». ويبدو أن اسم هذه المدينة التي تتوسط سورية اشتق من طينة أرضها، فقد استطاعت أن تحقق معادلة الطين

الإلهية: تراب من أرضنا ممزوج بروح الله، يقول الباحثون: إن اسم حمص في أحد وجوهه لفظ آرامي يعني «الأرض اللينة». وثمة من يقول: إن اللفظ حمص جذر كنعاني يعني فيما يعنيه «الخجل» ربما من حمرة اللون[1].

لقد حير اسم حمص العلماء واجتهدوا كثيراً في سبيل كشف معانيه، أعتقد أن اسم حمص ليس إلا اسماً من أسماء الشمس الحُسنى، وللشمس في تاريخ حمص مكانة مقدسة ومرموقة. فحمص هو اسم يجسد قوة وشدة إله الشمس وحُمرة غضبه وليس خجله، فالاسم يدل على القوة، ونجد في اللغة الآكادية كلمة أُمَاشُ[2]: تعني القوة، يقول عالم اللغات القديمة الليبي الدكتور علي فهمي خشيم: يقابل كلمة أُماش بالعربية: حُمص. وحمش: اشتد، قوي[3]، ومنها تسمية العرب لقبيلة قريش بـ «الحُمس» وهم أشراف العرب والاسم دليل الرفعة والقوة، وربما كان لهذه القبيلة العظيمة صلة بشكل أو بآخر بحمص أو العكس، فالحُمس تلفظ كما يلفظ أهل حُمص اسم مدينتهم بضم الحاء لا بكسرها كما هي في معاجم العرب[4]. كما أن كلمة أُمَاشُ أو أُمَاسُ الأكادية يمكن أن نجد تطورها في اسم «أميسا/ إيميسا أو إيميس أو حمص» الروماني. فالحاء نظيرها الألف في لغتهم.

والمدهش حقاً أن تجتمع صفتا «القوة والشمس» في وصف مدينة حمص عند أحد أبرز الأدباء في التاريخ العربي وهو الجاحظ، إذ ينقل ما يلي: يقول أهل حمص: إنهم لا يُغلَبون؛ لأن فيها نورَ الله في الأرض[5].

---

(1) حمص كعبة وحجرها الأسود عبدته روما، مجلة فكر، العدد 108، كانون2 ـ شباط 2010.

(2) السين والشين في اللغات القديمة واحدة فالشمس كانت تسمى شمش، وسمس، وشمس.

(3) الآكدية العربية، ص 129، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى القاهرة 2005.

(4) راجع حمص، لسان العرب.

(5) الحيوان، للجاحظ 2/ 184.

واللافت أيضاً أنه جاء في بعض الأساطير الإسلامية أن الله خلق النور يوم الأربعاء! وسيكون لنا لاحقاً وقفة مطولة لتفكيك الرمزيات الدينية التي تقف وراء هذه العبارات.

اتفق كثير من العلماء على أن اسم سوريا، جاء في الأصل من الجذر سرر، ومنه سراة النهار وقت ارتفاع الشمس، والسراة الجبال العالية وهي جبال شهيرة في جزيرة العرب، فالسري يدل على الرفعة والعلو، ومنه كلمة سير في اللغة الانكليزية التي تعني «السيد»، وفي اللغة السنسكريتية تعني «سوريا» الشمس، وإلى يومنا هذا لا تزال الصلوات ترفع له كل صباح في الهند، إضافة إلى أن اسم «سوري» اسم شهير في الهند.

ولعظم مكانة الإله شمس/سوريا في هذه البقعة الجغرافية، فإني أرجح أن يكون كثير من أسماء المدن السورية القديمة تسمت بأسماء الشمس الحُسنى أو صفاتها، مثل شام من السماء والسمو فالشمس هي السامية، والحمأة مدينة حماة وكان الشمس يعبد في اليمن بـ «ذات حمأة أو ذات حمم»[1]، وحمص من حمرة التحميص الناتج عن السخونة والحرارة العالية، ولاحظنا أن بعض الباحثين قال إن حمص جذر كنعاني يعني فيما يعنيه «الخجل»، ولكن الأدق أن يكون تعبيراً عن الغضب الذي ينعكس حُمرة شديدة في الشمس. ونجد أيضاً في لغة العرب ما يشير إلى علاقة اسم «حلب» بصفات الشمس[2] فثمة نبات يدعى حُلّب أكثر نباته

(1) معجم آلهة العرب قبل الإسلام، جورج كدر، دار الساقي، بيروت 2013.

(2) معجم لسان العرب «حلب» «الحُلَّبُ نَبْتٌ تعتاده الظباء» والحُلَّبُ، وهي شجرة تَسَطَّحُ على الأَرض، لازِقةٌ بها، شديدةُ الخُضْرةِ، وأَكثرُ نباتِها حين يَشْتَدُّ الحرُّ، ويمكن لنا أن نقول في هذا المجال ما قاله البعض في معنى اسم حمص من أنه يعود لكثرة ظهور نبات الحمص.

عندما يشتد الحر، وفي تسمية دمشق فإن المُدَمْشَقُ هو: المُصَهَّبُ من الشِّواءِ[1]... لن نخوض كثيراً في هذا المجال لأنه موضوع دراسة أخرى، ولكن ما يهمنا في هذه العجالة هو الإشارة إلى بزوغ عبادة إله الشمس الحمصي وانتشارها في العالم ذات تاريخ، لم يأت من فراغ بل أتى من تراث ديني وطقوس مغرقة في القدم، نجد أول إشاراتها في اسم حمص.

(1) راجع شرح «دمشق» في القاموس المحيط.

مقدمة الطبعة القديمة

صحيح أن للنكتة أدبيات وقواعد خاصة بها في الأدب الضاحك، لكن الصحيح أيضاً أن لها جذوراً عميقة في حياة الشعوب تحدد الإطار العام لها، فهي بحكم استهدافها لهذا لشعب أو لطائفة منه أو شخص مجهول أو معلوم فيه، تأخذ شكلها العام والحالي متبلورةً من أنواع «فكاهية» تتناسب والعصر الذي وجدت فيه، ويمكن القول: إن المضحك والمبكي، لا يتغير إطاره العام، إنما الذي يتغير آلية تلقيهما.

والحمصي كإحدى الشخصيات البارزة في الأدب الضاحك المعاصر استهدُف منذ البداية ونُعت بالحُمق، لا بل صنّفه ابن الجوزي بين «الحمقى والمغفلين على الإطلاق». وعلى ذلك تركزت النكات على أهل حمص فيما بعد. وللعلم فإن ما وسِم به أهل حمص، بنته أحداث تاريخية مهمة عاشتها المدينة.

هذا العمل، يبحث في جذور النكتة الحمصية، دون الدخول في تحليل النكات التي تروى عن أهل حمص، إلا ما تقتضي الإشارة إليه.

لقد خاضت حمص حرباً أيديولوجية فكاهية على مرّ تاريخها و«حرب الأيديولوجية الفكاهية» مصطلح للكاتب السوري الراحل بوعلي ياسين، استخدمه في كتابه «بيان الحد بين الهزل والجد»، يقوم على اعتبار أن هذه

الأيديولوجية تتسع لجميع الانتماءات الاجتماعية، من عشيرة وشعب وطبقة وطائفة، إلى غيرها من المجموعات البشرية التي تقوم بين أفرادها روابط مصيرية واقتصادية. في هذه الحرب ليس مهماً أن يكون كل ما يقال صحيحاً ولا صادقاً، وليس مقصوداً ولا حتى مرغوباً إصلاح الغير، ولا أخذ العبرة من مساوئه، بل على العكس، إذا لم توجد السلبيات في الآخرين، أوجدناها. وعلى فرض أنهم تغيّروا، وأصلحوا أنفسهم، فإننا لن نغير نظرتنا إليهم، في هذه الحرب لا يقال- من حيث الجوهر- أكثر من أننا «نحن» مختلفون عنهم «هم»، وأننا نحن (بما أننا نحن) أفضل منهم (لأنهم الغير).[1]

تشتمل حرب الأيديولوجية الفكاهية على صراع الأفكار والآراء والعقائد السياسية والدينية والفكرية لتلك الانتماءات، باستخدام الأسلحة «الفكرية» التي وصل إليها العصر، كالشعر (الهجائي منه خصوصاً) والقصص والنوادر (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي)، والدعاية والشائعة والنكت...إلخ، في العصور اللاحقة.

أما المقصود بـ «ليتورجيا المجانين المندثرة» فهو عيد المجانين وطقوسه التي كانت سائدة في العبادات الشرقية القديمة إجمالاً واستمر في طقوسه في مدينة حمص بعد ميلاد المسيح.

البحث مقسم إلى أربعة فصول:

1-العصبيات العربية بين السيف والهجاء:

وجذر الصراع فيه عاملان يلتقيان بعنوان واحد «العصبية»:

* صراع القيسية/ اليمانية * الصراع السني/ الشيعي

---

(1) بوعلي ياسين، بيان الحد بين الهزل والجد، ص 209-211.

كما نتطرق فيه إلى آراء بعض الرحّالة والمؤرخين، في إثبات ما أورده الأدباء حول صفة «الحُمق» الحمصية من خلال المشاهدات العيانية!

2-**على الصعيد الأدبي**: أعمال بعض الأدباء في إطلاق صفة «الحُمق الحمصي» التي تحولت مع الأيام إلى «الأجدب الحمصي»، هذه الأعمال كانت مادة رئيسة في اقتباسات الكتاب والأدباء، فيما بعد.

3-**على الصعيد الديني الطقوسي الـ «ليتورجي»**: حول يوم الأربعاء، وجذوره الدينية، وعبادات الربيع القديمة التي كانت سائدة في حمص، **وعيد المجانين المندثر**.

4-**على الصعيد النفسي**: وجهة نظر حول علاقة البكاء والضحك بالنكتة، وعلاقة ذلك بموضوع النكتة الحمصية.

5- تحول صراع العصبيات المحلية في سورية، من طابعه «التعصّبي» إلى المُزاح والتسلية.

وجهات نظر بعض المتخصصين في مجال النكتة، بالنكتة الحمصية.

العصبيات العربية
بين حرب السيف وحرب الهجاء

- ما هي العصبيات العربية التي كانت النكتة الحمصية تجلياً لها؟

- ما هي الأهمية التي كانت للحماصنة دون باقي بلاد الشام، والتي جعلت منهم محطّ «سخرية» المدن الأخرى؟

للإجابة على السؤالين، لابد من العودة إلى العصبيات التي سادت جزيرة العرب قبل الإسلام، وامتدادها في الإسلام، خصوصاً الصراع القيسي/ اليماني، الذي انتقل إلى مدينتي حمص وحماة مع الهجرة العربية لبلاد الشام، وكان له طابع خاص نذكره في حينه. إضافة إلى بعض القضايا المفصلية والحساسة التي لم تحسم بعد في التاريخ العربي، وتحديداً الصراع السني/ الشيعي. نظراً إلى علاقته الوثيقة بالنكتة الحمصية، وربما تكون السبب الأساسي في إطلاق صفة الحُمق على أهل حمص، مع الإشارة إلى تجنّب الدخول في متاهات هذا الصراع، لأن لكلٍّ من المتنازعين مبرراته ومؤيديه، وبشكل أدق تاريخه الخاص به، بكل تجاذباته الدينية والسياسة غير البعيدة عن المزاج الشخصي أو الجمعي، تظهر، وتجعلنا أمام «صياغة توراتية»[1] له.

(1) نقصد بـ«الصياغة التوراتية» الشكل وليس المضمون، وتحديداً الهالة المقدسة لأبطاله.

هذه الصياغة، التي أعاد رجال الدين إنتاجها ليؤكد كل منهم صحة مذهبه أو طائفته، أبعدتنا شيئاً فشيئاً عن قيمة تاريخنا كنتاج حضاري، وصولاً إلى تكريس العصبيات المختلفة وإثباتها عن طريقه، بالتالي لم نكن أمام «تديّن التاريخ» فحسب، إنما أمام «مذهبة التاريخ وتشظيته». وعلينا عند البحث فيه، ألا ننظر فيما كان «ينبغي أن يكون»، إنما «ما كان فعلاً» فتأريخ الدين شيء، وتديين التاريخ شيء آخر.

فعلى مرّ التاريخ العربي، تقنعت القبلية والطائفية والسياسة، بقناع العصبيات العربية، وهو ما ظهر بتتبع تطوراتها.

عاش العرب في بيئة صحراوية قوامها قبائل متفرقة، وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبل الإسلام - إذا استثنينا الممالك الصغرى في الجنوب والشمال - هو «النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة، وتجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل»[1]. فكانت العصبية القبلية هي السياسة التي حكمت قبائل العرب عصوراً طويلة حتى بعد الإسلام. كما كان لها تشعبات وتفرعات تمتد أطرافها وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التي تحيط بهم، فلها شكل في الشام، وآخر في العراق، وثالث في خراسان، ورابع في الأندلس».[2]

ويتبين إدراك قبائل العرب لأضرار هذه العصبية، عندما يشتد النزاع، ويكون للسيف الحكم الفصل، وكانت القبيلة التي تعجز عن المواجهة بالسيف، أو تريد حقن الدماء، توفد السفراء لإيجاد روح من التفاهم والودّ يضمن لها الاستقرار والأمن.[3]

---

(1) قصة الحضارة، ول ديورانت، ص10.

(2) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الأول، ص142.

(3) السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي، محمد علي دقة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983، ص19.

في العصر الأول قبل الإسلام، كانت العرب أمة شعرٍ، لها حياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة، «تعتمد في هذين النوعين من الحياة على العاطفة والشعور، أكثر من اعتمادها على الحكمة والرَّوية، تندفع بحكم هذا الشعور إلى الحرب أو السلم أو الخصومة»[1]. هذه العاطفة لم تختلف في الوقت الراهن عما كانت عليه في الماضي.

ويخبرنا التاريخ عن الكثير من الحروب التي امتدت عشرات السنوات، وكانت وبالاً على قبائل العرب في الجاهلية كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء...إلخ.

ولم يكن السيف الوحيد الذي اشترك في هذا الصراع، إنما قدمت العرب الشّعر «وقوداً لهذه العصبية المضطرمة» على حد تعبير د. طه حسين.

العصبية والهجاء

ومخاطر العصبية القبلية، لم تكن لتخفى على شخصية فذة كشخصية النبي العربي، لذلك نجده حين غادر مكة إلى المدينة، عندما اشتد الخناق على دعوته فيها «قطع كثيراً من صلات القرابة، واعتزم أن يستبدل صلات الدم بصلات الأخوّة الدينية في الدولة الجديدة».[2]

ولم تقتصر المواجهة بين العصبية الدينية التي أنشأها النبي وعصبية قريش على الاحتكام للسيف (معركتا بدر وأُحد مثلاً)، إنما اشترك في العداوة مع السيف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتجادلون،

---

(1) راجع طه حسين من تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول، الكتاب الثالث: الشك في الشعر الجاهلي، والمجلد الثاني صفحة 423.

(2) قصة الحضارة، مرجع سابق ص32.

وكان النبي يحرّض أصحابه ويَعد المقاتلين بالأجر والثواب، ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حساناً (حسان بن ثابت)[1].

وقد تذاكر الأنصار والقرشيون الهجاء الذي تبادلوه أيام النبي، وكانوا حريصين على روايته، يجدون في ذلك «اللذة والشماتة»، ما لا يشعر به إلا أصحاب العصبية القوية بعد النصر. ويروي التاريخ أن حزم عمر بن الخطاب قد حال دون الفتنة بين قريش والأنصار، فيروي ابن سلام في طبقاته أن عمرَ كان يتتبع الشعراء ويشتد على من خالف منهم قواعد الإسلام أقل مخالفة، وعمر فيما يحدثنا صاحب الأغاني، قال لنفر من أصحاب النبي: قد كنت نهيتُكم عن رواية الشعر لأنه يوقظ الضغائن.[2] طبعاً لا يخلو عمر من نظرة ثاقبة للأمور، فقد «عمل على تأسيس ملك المسلمين على شيء غير العصبية»[3]، وهي الرابطة الدينية متابعاً بذلك سياسة النبي العربي، وكان عمر يقول: «إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، فأما أنا فورب الكعبة لأحملنّهم على الطريق».[4]

بعد مقتل عمر «تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبوسفيان، فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية على وجه الخصوص»[5]. وهكذا تولّى عثمان الخلافة بعد عمر، فأقبل بنو أمية الذين كانوا في أيام الإسلام الأولى، ألدّ أعداء النبي على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة، ولم يكن في وسعه أن يقاوم مطالبهم، ولم يلبث

---

(1) من تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول، ص132.

(2) مرجع سابق، طه حسين، م1، ص143-135.

(3) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الأول، ص134.

(4) صانعو التاريخ العربي، فيليب حتي، دار الثقافة بيروت،ص35 - تاريخ الطبري، ج2، ص622.

(5) من تاريخ الأدب العربي، المجلد1، ص135.

أن «تولّى بعض المناصب المجزية عشرة منهم كانوا يسخرون من تزمّت أتقياء المسلمين وبساطتهم»، وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق، والكوفة، والبصرة، وهي المدن الآخذة بالنماء والتوسع، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم علي ضد بني أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام[1]. و«اشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، وهكذا هدأت حركة الفتح، وأخذ العرب بعضهم يفرغ لبعض».[2]

كان مقتل عثمان محصّلة تلك التعصّبات وبداية لتفجر التعصّبات الطائفية التي مهّد لها الخلاف بعد وفاة النبي بين علي وأبي بكر حول الخلافة، فكان من نتيجة ذلك التحولات السياسية على يد معاوية التي غلّبت السياسة على الدين، وعادت بالعصبية القبلية إلى بدايتها. وبذلك بدأت الصراعات السياسية تنمو في التربة التي هيأتها لها العصبية.

واقعة صفين، والنقمة على أهل حمص

طالب والي الشام معاوية بن أبي سفيان بالثأر لمقتل عثمان، وراح ينشر قميصه الملطّخ بالدماء، وأصابع زوجته «نائلة» التي قطعت وهي تدافع عنه.

واستعان معاوية في حربه ضد علي باليمانية (عرب الجنوب) واستعمل لذلك رأس أهل الشام شُرحبيل بن السمط الكندي. وكتب

(1) قصة الحضارة، ول ديورانت، ص78.

(2) من تاريخ الأدب العربي، المجلد1، ص135.

إليه معاوية: «إن هذا الأمر لا يتمّ إلا برضا العامة، فسِر في مدائن الشام، ونادِ فيهم بأنّ علياً قتل عثمان، وأنّه على المسلمين أن يطلبوا بدمه». فبدأ بأهل حمص، فأجابه الناس، إلا نساك أهل حمص»[1].وهكذا أخذ معاوية «يجنّد السوريين المسيحيين وعرب اليمن الجنوبيين الذين كانوا استقروا في سورية منذ زمن بعيد».[2]

كان أهل حمص مع أهل قنسرين ميمنة جيش معاوية.[3] وخلال المعركة جمع الخليفة علي، همدان، وقال لهم: «يا معشر همدان، أنتم درعي ورُمحي، يا همدان ما نصرتم إلا الله ولا أحببتم غيره». فقالوا «أحببنا الله وأحببناك، ونصرنا نبي الله صلى الله عليه وسلم عليه في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارمِ بنا حيث أحببت».

قال علي: ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وقال علي لصاحب لواء همدان: «اكفني أهل حمص، فإني لم ألقَ من أحد ما لقيت منهم. فتقدم وتقدمت همدان وشدَّة شدة واحدة فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً بالسيوف وعُمُد الحديد حتى ألجؤوهم إلى قبة معاوية، وارتجز فارس من همدان يقول:

قد قتل الله رجال حمص حرصاً على المال وأي حِرص
عُزّوا بقول كِذب وحرص قد نكص القوم وأي نكص

عن طاعة الله وفحوى النص[4]

بدا النصر واضحاً لعلي لو لم يأخذ معاوية بالحيلة التي أشار إليه بها عمر بن العاص قائد جيشه، وأحد دهاة العرب، حيث رفع المصاحف على

(1) واقعة صفين، نصر بن مزاحم المِنقري، ص50-51.
(2) صانعو التاريخ العربي، مصدر سابق، ص68.
(3) واقعة صفين، ص206.
(4) واقعة صفين، ص437-438.

أسنّة الرماح طالباً التحكيم إلى كتاب الله، الأمر الذي قبله علي وعين حكماً من قِبله، هو أبو موسى الأشعري «وجاء قرار الحكمان ينزع عن علي حقّه بالخلافة التي كان يتولاها، ويعطي معاوية، ضِمناً، حقاً لم يكن قد أعلن عنه بعد».[1]

نتيجة لقبول علي التحكيم انقلبت عليه جماعة من مؤيديه «الخوارج»، وأضحوا من ألدّ أعدائه، فسدد أحدهم إلى علي طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته.

المتدينون ببغض علي «الناصبيون»

يروي لنا المسعودي ما كان من «دهاء معاوية وإتقانه للسياسة واجتذابه قلوب خواصّه وعوامه» ونلاحظ تأثيره الكبير على أهل الشام في رسالة وجهها للإمام علي، نقلها له رجل من أهل الكوفة، قدم إلى دمشق بعد موقعة صفين، جاء فيها: «أبلغ علياً أني أقاتله بمئة ألف ما فيهم من يميّز بين الناقة والبعير (يقصد أهل دمشق)[2]، وبلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء (يقصد أهل حمص)، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمر بن العاص: إن علياً قتل عمار بن ياسر، حين أخرجه لنصرته. ثم ارتقى بهم

---

(1) صانعو التاريخ العربي، مصدر سابق، ص67.

(2) دخل رجل من أهل الكوفة، دمشق مع بعيره، فتعلق به رجل من دمشق وقال له: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فارتفعا بأمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون بأنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا الحكم قد مضى، ودسّ إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، وبرّه، وأحسن إليه، (وأبلغه الرسالة المذكورة أعلاه).

الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنّة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير».[1]

أما الخليفة علي فكان حريصاً ألا تأخذ واقعة صفين شكل الحرب الإقليمية، وحاول حصرها بشخص مسبّبيها، وهذا يتضح مما قاله علي في صفين: «وأهل العراق يسبّون أهل الشام: يا أهل العراق لا تسبّوا أهل الشام، فإن فيهم رجالاً كارهين لما ترون، وإنه بالشام يكون الأبدال».[2] وكان علي إذا صلى الغداة والمغرب وفرَغَ من الصلاة يقول: «اللهم العن معاوية، وعمروا، وأبا موسى، وحبيب بن سلمة، والضحاك بن قيس، والوليد بن عُقبة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد» فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنتَ لعن علياً، وابن عباس وقيس بن سعد، والحسن والحسين.[3]

أما معاوية، فبعد توليه شؤون المسلمين شرع لشتم عليٍّ على منابر الصلاة يوم الجمعة، ظناً منه أنه بهذا العمل يشوه شخصيته ويقلل من مؤيديه، وبقي الأمر حتى «أبطله عمر بن عبد العزيز».[4]

هذا الأمر «استقبحه رهط من خلفاء الأمويين كمعاوية الثاني بن يزيد الذي استنكر ذلك، لكن هشام بن عبدالملك بعث هذه الفكرة من مدفنها». وظهر الناصبيون (المتدينون ببغض عليٍّ) في الشام عموماً، وفي حمص خصوصاً، وبقي ذلك شأن بعض المحدّثين الحمصيين إلى أن نبغ فيهم عالم الشام إسماعيل بن عياش، الذي حدثهم بفضائل عليٍّ فكف أهل حمص عن انتقاصهم له.[5]

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص40.

(2) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(449-571هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت 1995.

(3) واقعة صفين، ص552.

(4) تاريخ سورية، مصدر سابق، ص149.

(5) تاريخ حمص، ج2، ص112-113.

هذه حالة عمّت أيضاً البلاد الإسلامية، حتى أن حاشية عامل معاوية الذي تولى الجزء الشرقي للإمبراطورية (بلاد الشعوب التي تتكلم التركية) كان حرسه مؤلفاً من خمسمئة فارس، ولديه قوة من الشرطة قوامها ألف رجل مسلح، ولديه شبكة من الجواسيس. «والويل كل الويل لمن يسقط في امتحان الولاء للدولة، وكان الامتحان لعن علي!».[1]

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، وفي معرض ردّه على محمد بن عبد الله المهدي الذي خرج من المدينة مطالباً كأسلافه بحق الخلافة بعد وفاة أبي العباس السفاح، قد أبرز بعد شرحه «نظرية العباسيين في وراثة الملك» فضل العباسيين في إلغاء هذه الظاهرة قائلاً: وكانت بنو أمية تلعن علياً كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له، وذكّرناهم فضله، وعنّفناهم وظلمناهم بمن نالوا منه.[2]

لكن هذه الظاهرة، عادت في العهد العباسي، حيث كانت وسيلة تقرّب الشعراء من مجلس هارون الرشيد ذمّ آل علي، حتى أن الشاعر أبان بن عبد الحميد عندما حاول التقرب من بلاط الرشيد لينال عطاءه، نصحه البرامكة قائلين: يجب أن تذهب مذهب مروان بن أبي حفصة، فتذمّ آل علي، ففعل ونال الجوائز منه على قصيدته:

نشدت بحق الله من كان مسلما
أعُمُّ بما قد قلته العُجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زُلفة
لديه أم ابن العم في رتبة النسب
فإن كان عباس أحق بتلكم
وكان عليّ بعد ذاك على سبب

(1) صانعو التاريخ العربي، ص80.
(2) طه حسين، المجلد 2، ص317-321.

فـأبـنـاء عـبـاس هـم يـرثـونـه

كما العم لابن العم في الإرث قد حجب[1]

ومروان بن أبي حفصة هو الذي نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك وصاغها في قصيدة أودت بحياته فيما بعد:

أنـى أن يـكُـونَ ولـيـس ذاك بكائن

لبني الـبـنـاتِ وراثـة الأعـمـام[2]

لكن تبادل اللعنات والشتائم لم يقتصر على الناصبيين، إنما كان «الشيعة في صلواتهم يدعون لعلي وآله من الأئمة الصالحين، ويلعنون الأمويين والعباسيين المغتصبين»[3].

العرب والعصبية في بلاد الشام

من الناحية السياسية، اصطحب العرب عند انتقالهم من الجزيرة عصبيتهم التي شكلت أرضية الانقسامات الدينية والمذهبية بأدواتها المختلفة، الحرب والأدب. ولا يخفى على أحد أن التقسيمات الاستعمارية في العصر الحديث للبلاد العربية، وضعت على أساس توزع العصبيات القبلية والدينية.

بشكل عام، أسس عرب ما قبل الفتح أربع ممالك في «الهلال الخصيب» نحو 500 ق.م فكان الأنباط في شرقي الأردن، والتدمريون في تدمر، وهما من عرب الشمال، أدت الهجرات الموسمية إلى قيام دويلاتهم. وكان الغساسنة في حوران وهم من عرب الجنوب، والمناذرة

(1) طه حسين، المجلد الثاني، ص295.

(2) طه حسين، المجلد الثاني،ص312.

(3) صانعو التاريخ العربي،ص133.

جنوب العراق.[1] كانت هذه القبائل أدوات للصراع بين «قطبي العالم» آنذاك، الفرس والروم.

وكانت الشام والجزيرة، منذ الجاهلية، مطمح أنظار أهل البادية، وموضع أهوائهم، وقد تردد عليها أهل البدو من بكر وتغلب في الجزيرة. فلما جاء الإسلام وكان الفتح، كثر اجتماع العرب بالشام والجزيرة، واشتدت قوتهم في هذه البلاد[2].حتى وصل «عدد العرب في بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام 644 م».[3]

وفي عهد الخلفاء الأمويين كان عرب الشام والجزيرة، أشد العرب تمسكاً بعصبيتهم، يؤثرونها على كل شيء، ولذلك بذلوا كل ما يستطيع أن يبذله إنسان من الفنون والقوة لنصرة بني أمية[4]. لأن الدولة الأموية منذ أيام معاوية قامت على فكرة العصبية العربية «القومية» فيما يتعلق بالأجانب، وعلى فكرة العصبية القبلية فيما يتعلق بالعرب أنفسهم. فكل خليفة هوعربي والأصل الذي تقوم عليه نظريتهم هو أن يسود العرب، وأن لكل خليفة عصبيته الخاصة، فهو إما متأثر بالعصبية اليمانية أو المضرية، ولكل خليفة إضافة إلى ذلك عصبية أخصّ من حيث القبلية، فهو يتأثر بهذه أو تلك من قبائل مضر أو اليمن.[5] وفهم معاوية طبيعة أهل الشام إذ جاء في وصيته لابنه يزيد قبل توليه الحكم: «انظر أهل الشام فإنهم بطانتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردُد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم».[6]

---

(1) الميثولوجيا السورية-أساطير آرام-، د. وديع بشور، ص24-124.
(2) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الثالث، ص413.
(3) قصة الحضارة، ص77.
(4) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الثالث، ص414.
(5) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الثاني، ص24.
(6) مروج الذهب، المسعودي، المجلد الثالث، ص15.

لكن العصبية الطائفية/ السياسية، توحّدت في العصر العباسي، حيث «بدأت عملية الدمج بين العرب وغيرهم من الأجناس البشرية في وقت مبكر عند قيام الدولة العباسية، وازدادت نشاطاً وحدّة في عهد المأمون».[1] لاسيما الفرس، لدرجة أنّ النساء الفارسيات غلبت في دور الحريم، «حتى أن أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم، كنّ من الجواري»[2]. ولم يكن بين خلفاء بني العباس سوى الأمين من أبوين قرشيين[3] فأمه زبيدة زوجة هارون.

الحجاز- دمشق - العراق والانتقال إلى اللهو:

في عهد بني أمية «استمرت حانات الخمرة ودور المقامرة، وكان لعب النرد من أحب ضروب اللهو، في ازدهارها، بل إنها تمتّعت أحياناً برعاية بعض المتنفذين حتى من المسلمين. وكان الرهبان أرباب خبرة واسعة في صناعة الخمور، وجني العسل، وتعهد الإثمار والأزهار، ويفترض فيليب حتّي أنه في غالب الظن أن الأديرة كانت تشتمل على دار ضيافة للهو والسمر».[4]

ونتيجة لثراء مكة والمدينة من غنائم الحروب، كثرت فيها السراري، وجرت فيها الخمر المحرّمة في الإسلام، وأخذ المغنّون يطربون سكانها، وبذلك غلبت نزعة الاستمتاع بمباهج الحياة الأموية على نزعة التقشف والتزمت التي اتصف بها أبو بكر وعمر، في أقدس مركزين من مراكز

(1) صانعو التاريخ العربي، ص117.
(2) قصة الحضارة، ص88.
(3) صانعو التاريخ العربي، ص109.
(4) تاريخ سورية، ج2، ص100.

الإسلام.[1] وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجواري الموسيقى والغناء، وفنون فتنة الرجال، ثم يبيعونهنّ بأثمان غالية.[2]

طبعاً، كان لطبيعة التنظيم الاجتماعي الذي ساد بعد أن ضرب الحجاب على المرأة الحرّة، وانسحابها إلى المنزل، دور كبير في أن يحول حجابها وجهلها بينها وبين الرجل، وأفسح سفور الجارية وثقافتها الطريق لها لتحتل وقته وقلبه واهتمامه... و«هكذا خلال قرن من الزمان أصبحت بيوت القيان أماكن شراب وفسوق، بعد أن كانت مخصصة للسماع والتحدث فقط، وهذا التطور المتدني في وضع بيوت القيان يصوّر بصدق حركة اللهو وانتقالها من إعجاب وشغف بالفن الغنائي، إلى انغماس في الشراب، وانزلاق نحو الفجور».[3]

لقد كان «للجيل الثالث» الذي ولد أواخر أيام عثمان ومعاوية،[4] وشبّ على استقرار أمور الدولة إثر تقدم الفتوح والانتهاء من الفتن دور في التخفيف من حدة العصبية، فهو جيل شبّ على الرفاهية التي وفرتها له غنائم الحروب.

وبالرغم من أن هذا الجيل لم يكن عربياً خالصاً كما كان الجيل الأول (عاصَرَ النبي وبداية الإسلام)، والجيل الثاني(لم يعاصر النبي ونشأ في عهد عمر وعثمان)،[5] من ناحية التكوين العقلي والتثقيف الذي كان الفتى يتأثر به من أمه.[6] لأن الخليفة من الأمويين أو الأرستقراطي كان يجمع في

---

(1) قصة الحضارة، ص153.
(2) قصة الحضارة، ص139.
(3) العربي عدد -52 مارس،1963، مصدر سابق.
(4) من تاريخ الأدب العربي، ج2ص17.
(5) من تاريخ الأدب العربي، ج2ص16.
(6) من تاريخ الأدب العربي، ج2ص19.

داره من الأزواج العربيات الحرائر، ونساء من بيئات مختلفة، على الرغم من ذلك، فقد كان هناك تفريق ناتج عن العصبية «المخففة» التي مازالت تفرّق بين عربي الأب والأم وغيره، وأصبحنا نسمع ألقاباً كابن الرومية، ابن الفارسية، ابن الحبشية... كما يقول د. طه حسين.

لكن «التهجين الحضاري» - إن صحّت التسمية - بلغ أقصاه زمن العباسيين، حتى أن من بين خلفائهم كان الأمين فقط عربي الأب والأم. وبلغ التأثير الحضاري أقصاه أيضاً، خصوصاً التأثر بالحضارة الفارسية، لاسيما أن أغلب أصحاب القيان (الأمة المغنية) كانوا «من الموالي غير العرب، إلا أقلية منهم كانت عربية كما تدل على ذلك أسماؤها»[1].

والإمام الغزالي، وصف في الجزء الأول من كتابه «مطالع البدور في مجالس السرور»، مدى التحلّل من التعاليم وتفشّي التهتك وشرب المسكرات في القصة التي ذكر فيها أن أحدهم عمد سنة 377 هـ إلى تسمية ولده مداماً وكنّاه أبا الندامى، وسمّى ابنته الراح وكنّاها أم الأفراح، وسمّى عبده الشراب وكنّاه أبا الإطراب وسمّى وليدته القهوة وكنّاها أم النشوة.[2]

تحول العراق من موطن للجد إلى موطن للمجون

كان العراق موطن الجد الخالص، في جميع أنحاء الحياة الإسلامية طوال القرن الأول، في السياسة (المعارضة السياسية، الأحزاب السياسية مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة)، والدين (من حديث وسنن وأخبار)، والعلم (علو اللغة والنحو).[3]

---

(1) العربي عدد -52 مارس،1963، بيوت القيان، بقلم د. نبيه عاقل.

(2) مجلة المعرفة السورية العدد 484 كانون الثاني 2004، إخوان الصفا: قراءة معاصرة، كمال راغب الجابي.

(3) من تاريخ الأدب العربي، ج2، ص51.

لكن كتب التراث، تشير إلى أنه في القرن الرابع الهجري، انتشرت الفواحش وافتتاح محلات الدعارة العامة لغير القادرين على فتح المحلات الخاصة. واستفحل التسرّي واستيلاد الجواري اللاتي كنّ أمهات لأغلب خلفاء بني العباس، وللخاصة من الناس على حد التعبير الشائع:

إن أولاد الجواري كثروا يا رب فينا
رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجينا[1]

يرى د. طه حسين، أن هذا التحول إلى موطن للمجون لم ينشأ في العراق، إنما وفد إليه كنتيجة طبيعة لتطور الشعر في الحجاز بعد أن كثرت في المدينة مجالس اللهو والغناء، وأصبح الشعر في المدينة مضطراً لأن يلائم نفسه مع الموسيقى، فكان الشعر يُصنع ليتغنى به، وأكثر من ذلك راعى الشعراء عند وضع شعرهم بالإضافة إلى السمع (الموسيقى)، البصر (حركات الراقصات في الرقص).

في البداية أنكر العراق، يضيف د. طه حسين، كل ذلك إنكاراً شديداً، وكان التنافس بين العراق والحجاز حول هذه اللذات من الأشياء التي يُتندّر بها، فيتندر العراقيون بخنوثة الحجازيين، ويتندر الحجازيون بغلظة أهل العراق. ومع يزيد بن عبدالملك انتقلت مظاهر اللهو إلى قصر الخلافة الأموية في الشام، عندما اشترى جارية كانت من سيدات الغناء في المدينة ورئيسة مدرسة فيها، فكان لها أصدقاؤها من المغنين والراقصين والراقصات والشعراء وأصحاب اللهو والمجون، كان ذلك على الرغم من أن أهل الشام من العرب، الذين كانوا عماد الخلافة الأموية، وكانت كثرتهم من اليمانيين الذين كانوا لا يُعنون بهذه الأشياء، لكن آثار قصر هشام بن عبدالملك تُظهر أنه أقيم على طراز القصور البيزنطية، وما فيها

(1) مجلة المعرفة، مرجع سابق.

من صور وتماثيل وزخرف، اتخذت لتكون محيطاً لبيئة فيها كثير من اللهو، ومن الحياة الفنية المعقدة، وقد ظل يزيد ولياً للعهد طوال خلافة هشام أي على مدى عشرين سنة، وخلالها، انتقلت هذه الظاهرة إلى الشام سراً أو جهراً طوال ربع قرن، وبذلك أصبح هذا اللهو معرضاً لانتشار هائل لأن الناس على دين ملوكهم، وأكبر الظن أنه من خلال صِلات أهل العراق بالقصر وبأمير العهد، ثم الصِّلات العادية اليومية والحياة العامة، انتقلت هذه الحضارة تدريجياً من الشام إلى العراق، وأتاح لها النمو في العراق سببان أساسيان برأي د. طه حسين :

1. لأن فيه القبائل العربية وبنوع خاص المضرية العدنانية من الحجاز ونجد، والعدنانية أسرع العرب إلى الحس وإلى التأثر بحياة العاطفة، فيهم نشأ الشعر القديم، وهم الذين حافظوا عليه في العصر الإسلامي، وهم أصحاب لذة دائمة يجدونها، ويتهالكون عليها، منذ عصورهم القديمة في مظاهر الخمر والغناء.
2. السبب الأهم حدث عندما ضعفت السلطة الأموية وقامت الدولة العباسية، وفي ذلك الوقت طالب الموالي بالمساواة مستغلين إقبال الخلفاء للذتهم أولاً، وللخروج على التقاليد ثانياً، فحياة الثورة التي كان يحياها الموالي في العراق، كانت في الوقت ذاته الذي كان فيه قصر الخليفة وولي العهد يتحضّر على طريقة الحجازيين.

يقول المستشرق ول ديورانت: «إن اللهو لم يقتصر على ذلك، إنما شذ إلى درجة نشأت طائفة من المخنثين المحترفين، تشبَّهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم، يضفرون شعورهم، ويصبغون أظافرهم بالحناء، ويرقصون الرقص الخليع، وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بخصاء من كان في مكة من المخنثين، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع

رأسيهما، على الفور. لكن اللواط والسحاق، على الرغم مما فرض عليهما من العقاب الصارم، أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيري الحدوث في بلاط هارون الرشيد.[1]

مايهمنا في هذا الموضوع، أن فترة «ركود نسبي على المستوى الاجتماعي- السياسي»، وحتى الأخلاقي - وليس الأدبي- مقارنة مع العقود الأولى أتاحت المجال أمام انتشار كل ما هو شاذّ أحياناً ومسلّ وظريف حتى أن هناك من اتخذ من الحماقة مهنة يعتاش منها. وتروي كتب التراث عن بعض الأذكياء أنهم رأوا أن سوق النوادر عن الحمقى رائجة تدرّ على أصحابها الأموال الطائلة، ومنهم الشاعر الحمدوني، الذي لامه الناس على تحامقه، فقال: حماقة تعولني خير من عقل أعوله. ثم أنشد:

عذلوني على الحماقة جهلا
وهي من عقلهم ألذ وأحلى
حمقي اليوم قائم بعيالي
سيموتون - إن تعاقلت - ذلا[2]

فالعامة، لم تعد لأمورالسيف وإنما للكلام الرقيق، وعليه، «فالشعر الذي رتع فيه جرير والفرزدق أوائل القرن الثاني ملّ منه الجيل الجديد» كما يقول د. طه حسين. وهكذا استعيدت مع الأيام والسنون عصبيات الماضي بطرق أخرى مختلفة، كان منها القصص الهجائي، ما أدى إلى استعار «حرب الأيديولوجية الفكاهية» متخذة من الآراء والعقائد والانتماءات وقوداً للصراع، ولما كان الشيعة والقيسية ألدّ أعداء أهل حمص أخذوا يؤلفون القصص والنوادر، عليهم.

---

(1) قصة الحضارة، ص135-136.

(2) علي القيم- صحيفة البعث- 10/ 6/ 2004.

حرب الأيدولوجية الفكاهية

حمص والتعصبات الطائفية / القبلية

يتجلى الغموض الذي يكتنف تاريخ النكتة الحمصية في كونها تتشكل في قسمها الأعظم من التاريخ الشعبي ولكون هذا التاريخ «تطور وتحوّر وعاش حراً طليقاً، قبل أن يقيده الطبع والحفظ».[1] فقد بقي بعيداً عن تاريخ السلطان، وهو التاريخ المعتمد عبر العصور. وهناك الكثير من الظواهر التي يجب العودة فيها إلى التاريخ الشعبي ولاسيما النعوت والألقاب التي تكنت بها مدن أو شخصيات. فكما هو معروف من منطق الحياة اليومية، فإن لقب شخص يعطينا فكرة كاملة عنه. والذاكرة الشعبية تحتفظ بالكثير من ألقاب العائلات للدلالة على خواصها، وإذا سألت شخصاً من هذه العائلة أو أحد المقربين منها عن سر التسمية يقدم لك تفسيراً مختلفاً تماماً عن تفسير أهل الحي وغيرهم. لذلك فالتاريخ الشعبي واضح وصريح ومباشر، لكن عوامل الكبت الاجتماعية تقيده، وتدفنه بعيداً في الذاكرة الشعبة أو اللاوعي الشعبي، ويبقى يظهر على شكل أساطير قصص وحكايات ونوادر عن شخص ما، أو قبيلة، أومجتمع معين.

يمكن تقسيم الجانب التاريخي للنكتة الحمصية إلى قسمين، ما يتداول

(1) أديب الأسطورة عند العرب، فاروق خورشيد، سلسلة عالم المعرفة.

على أنه رواية شعبية انتقلت من جيل إلى آخر، وتم تحريفها بفعل الدور الذي تمارسه الذاكرة الشعبية على الأحداث. والثاني ما جاء في بعض المصادر التاريخية من روايات متفرقة أغلبها يعتمد على السّرد الشعبي للحدث.

- الرواية الشعبية:

أبرزها، تلك التي تقول إنه عندما اجتاح تيمورلنك بلاد الشام كانت المدينة الوحيدة التي سلمت من أذاه هي حمص، لأن سكانها تظاهروا بالجنون في الشوارع، وعلّقوا على رؤوسهم القباقيب وأخذوا يقرعون على الصحون النحاسية، وأشاعوا أن مياه العاصي تصيب كل من يشربها بالجنون. هذا ما جعل الجيش الجرّار الذي يرافق تيمورلنك يمر مروراً سريعاً في حمص، حدث ذلك يوم أربعاء. هذه الرواية تُروى أيضاً عن الحملات الصليبية، بدلاً من تيمورلنك. المهم أن الرواية الشعبية تجانب الصحة كما تقول المصادر التاريخية في أن تيمورلنك مرَّ بحمص مروراً دون التعرض لها بأذى.

وتختلف الروايات من شخص إلى آخر، منها أنه:[1]

عندما دخل التتار بلاد الشام، كانوا يعيثون فيها فساداً وتدميراً، وعندما حاولوا الاقتراب من مدينة حمص، اجتمع وجهاء المدينة، وبعد اجتماع مطوّل ومباحثات مكثّفة قرّر كبير الحماصنة الاحتيال على المغول، وصادف ذلك أنه كان يوم أربعاء، وقرروا أن يفتحوا أبواب المدينة، فلما دخلها المغول دهشوا عندما وجدوا أهلها يلبسون ثيابهم بالمقلوب، ويسيرون

(1) صحيفة الدومري الساخرة- العدد-39- الاثنين 26/ 11/ 2001.

إلى الوراء، ويتحدثون بطريقة معكوسة، فأمر قائدهم جيوشه بالهروب بسرعة إلى خارج المدينة، خشية أن يصيبهم المرض الذي أصاب أهل حمص، وبعد ذلك قرّر كبير الحماصنة اعتبار يوم الأربعاء مناسبة وطنية وعيداً سعيداً، وصارت سمة لكل حمصي وشيئاً يفتخر به.

• وفي رواية ثانية:

في أثناء الاحتلال العثماني، كان هناك آغا على مدينة حمص، وكان يفرض على سكان المدينة أن يلبسوا قبقاباً في الصيف وصندلاً من الجلد في الشتاء. وعندما قرّر الوالي زيارة مدينة حمص، جاء توقيت الزيارة في شهر شباط، ومعروف أن هذا الشهر صاحب مزاج ومتقلّب الأجواء ولم يعرف الحماصنة كيف ينفّذوا الأمر، فلبسوا في رجل صندل الجلد وفي الأخرى قبقاب الخشب، وحدث أن تساقطت الأمطار فوقفوا على رجل واحدة حاملة القبقاب، ورفعوا الأخرى حاملة الصندل. وكان ذلك يوم أربعاء.

• ومن الروايات أيضاً عن أصل قصة يوم الأربعاء:

أنه في حرب علي ومعاوية، كان قد أرسل الأول رجلاً إلى بلاد الشام ليستطلع الأخبار، وحدث أن سُرق جمله... ودخل إلى المدينة ليبحث عنه، وإذا بالمؤذّن يؤذّن لصلاة الجمعة، وكان ذلك يوم أربعاء. وصل هذا الرجل معاوية ليسأله ذلك، فقال له: اذهب إلى مولاك وقل له سوف أحارب بقوم لا يفرقون بين الناقة والبعير، ويصلون الجمعة في أي يوم يريده الأمير...

• ومنهم من يرى:

أن أصل التسمية متعلق بالصراع الذي كان قائماً بين

المسلمين في فترة سابقة، ويؤكد المؤرخون أن أحد أطراف الصراع قام بتعبئة جند حمص للإسراع بها والسيطرة على مياه الفرات، إلا أن الحماصنة طلبوا منه التريّث حتى صلاة الجمعة، وما كان من زعيم الحماصنة إلا أن أمر بالنداء لصلاة الجمعة، وكان ذلك اليوم أربعاء، فوسمت حمص وأهلها بعيد يوم الأربعاء.[1]

نلاحظ، أن الآراء السابقة كان عبارة عن روايات تناقلها الأشخاص، منهم من رواها له جدّه أو والده أو أحد المقربين، أو سمعها عن طريق الصدفة، مع العلم أن لبعضها أساساً تاريخياً، حوّرته «الذاكرة الشعبية»، ولكن كل الآراء السابقة، ليست كافية لتفسير كيف استطاع يوم الأربعاء الحمصي أن يحافظ على حضوره، كل تلك القرون.

- نعوت وألقاب:

يرى أنطون سابا في كتابه «حمصنه»، أن صيت «الجدبة» الحمصية نقل وما يزال ينقل، إلى أصقاع الأرض من أهالي أربعة مدن سورية، حماه ودمشق وحلب واللاذقية، ولهؤلاء ألقابهم أيضاً، وأغلبية الألقاب كانت عندما دخل تيمورلنك سورية، وكانت أول مدينة يدخلها هي حلب، فبعد مقاومة أهاليها لجيشه الجرّار، كانوا يقولون «نحنا الحلبية رجِيل» أي رجال «رجليْن» لكنها كلّفتهم إثر انتصاره، جدع أنف كل ذكر منهم وقطع أذنه، حتى غدا واحدهم كالجربوع. ومن هنا لقبهم «الجرابيع».

وعندما دخل إلى اللاذقية، رفع أهلها الرايات البيض، لكنهم انقلبوا عليه غدراً، فأحرق اللاذقية بأهلها وحيواناتها ولم ينج منهم أحد. ولقبوا

(1) راجع رسالة علي لمعاوية كما أوردها المسعودي، ص19.

«بالمنافقين». وبعد انتقامه توجّه إلى حماه، وكان سمع عن مراجلهم من عبارة كانوا يرددونها تقول «نحنا الحموية منيحرين» من نحر وقاوم أي لا يقاومهم أحد، وعندما دخلها تيمورلنك، أمر بقلع عين واحدة لكل ذكر فيها، لكثرة ما أصاب رجاله من سهام الحمويين، فلقبوا «بالعوران أو الظوطان».

أما أهالي دمشق، فقد أرسلوا يتحدون تيمورلنك، وأنهم سيلقّنونه درساً لن ينساه، لكن كان العكس، فأمر بقتل الذكور فيها واستباحة النساء، ومنها نعت الجيل الجديد «ببناديق تيمورلنك».

وعندما دخل تيمورلنك حمص، يتابع أنطون سابا، استقبله أهلها بالنخيل وأغصان الزيتون، وراحوا يهتفون له «أهلاً وسهلاً بملكنا الجديد» ففرح تيمورلنك لهذا الاستقبال، وتقبّل هدايا أهل حمص، وهكذا سلم أهل حمص من أذاه. ولما وصلت الأخبار إلى منافسيهم «تملّكهم الغيظ والحسد» وراحوا يتقولون «جدبها أهل حمص على تيمورلنك يوم الأربعاء فعفا عنهم»، ثم اقتصرت عبارتهم فيما بعد «جدبها أهل حمص يوم الأربعاء» لتبريد نار حسدهم من نجاة أهل حمص دونهم.

يقول سابا «... أن يكون الإنسان أعور ظاهرة طبيعية جداً، ثم أن يتهم بالبندقة فعلم ذلك عند الله، أما أن يصاب الآدمي بجدبة مؤقتة، لا بل وفي يوم محدد، أليس هذا مجرد ادعاء من حاسد لمحسود عجز عن الإتيان بما اجترح من خارق الذكاء للنجاة من أذية وحش آدمي شرس».

ونضيف على قول سابا، إن أهل حمص لم يوصفوا بالجبن أو الاستسلام، لأنهم لم يقاتلوا تيمورلنك، ولم يلقبوا بالضعفاء أو المستسلمين، لأنهم معروفون بقوتهم، حتى أن ياقوت الرومي، يقول: «إن اسم حمص مشتق من الحماسة، لأنها مدينة الأقوياء»[1].

(1) منير أسعد، تاريخ حمص، ص38.

وحتى اليوم، يقال «حمص العدية» وهي مشتقة من الاعتداد بالنفس. ويقول الرحّالة ابن جبيرالذي قام برحلته بين عامي 1182-1185م: «أهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرّس بالعدو، وبعدهم في ذلك أهل حلب». إذاً تعامل أهل حمص مع عدوهم بالطريقة السليمة.

عن نعوت المناطق الأخرى، يقول بوعلي ياسين في كتابه «بيان الحد بين الهزل والجد»: يُنعت الشوام بالبخل والخبث والملعنة ويقال: «بناديق الشام أو بناديق تيمورلنك». والحوارنة بالتخلف والفظاظة، حوراني غازل حبيبته قائلاً: «دقات قلبي وقلبك مثل رفسات البغل». وفي جبل العرب يوصفون بالعناد والشجاعة، يقال: «الدروز كبار روس». ويطلق على أهالي الجزيرة ديرية أو شاوية وتعني رعاة الغنم، من دون التمييز بين أهالي الحسكة ودير الزور والرقة، ويوصف الشاوية بضعف التمدن: «ديري سافر خارج دير الزور لأول مرة في حياته، فقال عندما غادرها: بخاطرتش يا سوريا». أما أهالي حلب يوصفون بالفضول والحشرية: «كان مصطفى يهرش في جسمه، فسأله أبو أحمد: هلق إنتي كل قديش بتتحمم يوب، أجاب والله يعني كل كام سنة بتحمّم شي مره، أجاب أبو أحمد يا لطيف! إيشو سمكة خاي». ولم ينج أهالي ادلب من السخرية، فيقول البعض: إن الداخل إلى المدينة تستقبله عبارة «أهلاً بكم وبأولادكم». أما أبناء اللاذقية فيقولون عن جيرانهم أبناء طرطوس «غسل إيدك إن صافحت طرطوسياً».[1]

- نعوت وألقاب من العالم:

ولكثير من الأقوام نكت يرمون بها أنفسهم، أو يرمون بها غيرهم، وكلها ترجع إلى صفاتهم وخصائص جبلتهم التي يمتازون بها عن

(1) بو علي ياسين، بيان الحد بين الهزل والجد، ص226 وما يليها.

غيرهم، فالإنكليز مثلاً مصابون بالبرود والاسكتلنديون بالبخل كاليهود، والطليان يتصفون بالشجاعة على طريقتهم، وبالتالي تكون النكات على هذه الصفات».[1] والفرنسيون يتندرون على غباء البلجيكيين، والغريب أن برنامجاً فرنسياً شهيراً عن السحر على قناة MTV تندّر فيه أحد الضيوف قائلاً: إن البلجيكيين «حيوانات غبية»، وأغلب الدول الأوربية تتندر على البلجيكي «المعتوه، الغبي...».

ويروي جهاد الخازن في إحدى حلقاته من زاويته «عيون وآذان» التي يكتبها في جريدة الحياة، أن الأوربيين عامة يتندرون على «الأميركي الغبي»:

– ما الفرق بين أميركي وببغاء؟ واحد عالي الصوت، يردّد كل ما يسمع بدون تفكير يوسخ الأرض حوله، والثاني طائر.

– أميركي غبي وأميركي ذكي وبابا نويل كانوا يسيرون في الشارع، رأوا مئة دولار، أي من الثلاثة يلتقطها؟ الأميركي الغبي، لأنه لا يوجد أميركي ذكي ولا بابا نويل.

هذه النكتة تروى اليوم عن أهل حمص على الشكل التالي:

حمصي ذكي وحمصي غبي وديناصور كانوا يسيرون في الشارع، رأوا مئة ليرة، أي من الثلاثة يلتقطها؟ الحمصي الغبي، لأن الحمصي الذكي والديناصور انقرضا منذ بدء التاريخ.

– تيمورلنك، سيد الدمار

ربما أخذت هذه الظاهرة مداها بعد «سبي» تيمورلنك بلاد الشام، لكن بعض المصادر التاريخية تخبرنا «أنه لم يدخل حمص لأن فيها قبر خالد بن الوليد»، وذلك بعد أن خرج لاستقباله أحد أعيانها ويدعى عمر بن الرواس

(1) النكتة المصرية، عبد العزيز سيد الأهل، ص19.

الذي أحسن استقبال الفاتح وقدم له هدايا فاخرة. و«بذلك كانت حمص هي المدينة الوحيدة في بلاد الشام التي سلمت من بطش تيمورلنك».[1] يقول مسعود خوند في موسوعته سوريا: ولما استولى تيمورلنك على بلاد الشام، مر بمدينة حمص فلم يدمرها أو يستبيحها كما فعل ببقية المدن لسورية، بل وهبها لجثمان خالد بن الوليد، الثاوي فيها، قائلاً: «يا خالد، إن حمص هديتي إليك، أقدمها من بطل إلى بطل»[2].

بالعودة إلى الرواية، نرى أن حرب الأيديولوجية الفكاهية، اتخذت مظهراً تعويضياً للهزيمة المرة على يد هذا السفاح، ما أتاح انتشار العديد من الألقاب لهذه المدن فأصبحنا نسمع بجدعان حلب، ومنافقي اللاذقية، وبناديق الشام، وعوران حماة. ولم يبقَ من هذه الألقاب إلا جدبان حمص وبدرجة أقل بناديق الشام وعوران حماة. روى لي أحد مسني مدينة حمص بيت شعر عن صفات أهل بعض المدن السورية أنشده أحد ظرفاء حمص:

لحمص أم لحماة المرء ينتسب
هناك العمى وهنا المعشر الجدب
وفي دمشق علاكات مصدّية
وللتناحة دار اسمها حلب

ولكن، هل من صفات أهل حمص الجدبة، لذلك تلقى عنهم النكت؟

لاحظنا أن الرواية الشعبية لا تعود إلى جذور الموضوع، لذلك فالنتائج التي سنحصل عليها بعد الاطلاع على المصادر الأدبية والتاريخية سوف تجيبنا على ذلك.

---

(1) تيمورلنك وحكايته مع دمشق، أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، الطبعة الرابعة 1987، ص142.

(2) الموسوعة التاريخية الجغرافية، سوريا، 10/ 289، مسعود خوند، تشرين الأول 1997، طبع في لبنان توزيع مؤسسة هانياد.

أما المصادر التاريخية، فتقسم المستوى التاريخي إلى قسمين: الصراع السني/ الشيعي - الصراع القيسي/ اليماني.

فالنكتة الحمصية، ليست في شكلها الحالي إلا الصيغة العصرية للقصص والنوادر التي نقلها مؤرخون مثل المسعودي وابن الجوزي. قبل أن نذكر ما قالوه عن أهل حمص.

- الصراع السني/الشيعي:

إن لم تكن موقعة صفين- السابقة الذكر- بداية الصراع السني/ الشيعي «المسلح»، فقد أخذت هذا الطابع مع مرور الوقت، حاملة معها نقمة الإمام علي على أهل حمص.

يقول المؤرخ الألماني فرانتس ألتهايم في كتابه «إله الشمس الحمصي»، إن حمص تعد من أكثر مدن سورية تعصباً (تعصباً دينياً) في الماضي والحاضر.[1]

لكن الباحث فراس السواح، الذي راجع ترجمة هذا الكتاب، يقول في معرض تعليقه على هذه النقطة: «لا ندري كيف كوّن المؤلف فكرته هذه عن أهل حمص، ذلك أن شخصية الحمصي كما يعرف الجميع تتصف بالانفتاح والسماحة والطابع الشمولي، وهو لا يتعصب حتى لمدينته ذاتها».

على الرغم مما اتصفت به حمص من شمولية وانفتاح، إلا أنها كانت مركزاً لتجاذبات صراع العصبيات الدينية/ السياسية العربية، فأهل حمص كانوا من أشد الناس على عليٍّ بصفين في حربه لمعاوية، وأكثرهم تحريضاً

(1) إله الشمس الحمصي، فرانتس ألتهايم، ت.إيرينا داود، دار المنارة،ص58.

عليه وجِدّاً في حربه، على ما يقول القزويني وياقوت الحموي. ولكن يخبرنا التاريخ أن عصبية أهل حمص لم تلتف حول معاوية فقط، على الرغم من أن سورية كانت طيلة العهد الأموي، «على مذهب أهل السنة، لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسيين أفسح المجال أمام تعاليم العلويين».[1]، فلما انقضت أيام الأمويين «صاروا (أي أهل حمص) من غلاة الشيعة، حتى أن في أهلها كثيرٌ ممن رأى مذهب النصيرية، وأصلهم الإمامية الذين يسبّون السلف»، كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان. لكن - وبشيء من التوسع- كان لانتشار المذهب الشيعي في بلاد الشام، بشكل عام، أهمية بحثية خاصة، فبعد انهيار وضع الشيعة في العراق، نتيجة عدم التزام معاوية بتنفيذ معاهدة الصلح مع الحسن بن الإمام علي، وخصوصاً البند الخامس، الذي أمّن أصحاب علي وشيعته. تشتّت الشيعة في البلاد المحيطة. وكان لبلاد الشام النصيب الأوفر من هذا المعترك. ففي هذا الإطار، حصلت الهجرة الهمدانية الكبرى،[2] وكانت حمص أحد مواطن خمسة استقر فيها المهاجرون الهمدانيون القادمون من الكوفة.[3]

وتذكر دائرة المعارف للبستاني، أن أهل حمص أطاعوا مذهب القرامطة لأنهم شيعة. وانحازوا إلى القداح داعي الفاطميين منذ أول ظهورهم».[4]

وقبل ذلك، دانت بالمسيحية، وقبلها كان لها ديانة خاصة بها دانت بها الإمبراطورية الرومانية هي ديانة «الشمس» جعلت كبير آلهة الأوليمب

---

(1) تاريخ سورية، مصدر سابق، ص189.

(2) همدان قبيلة شهيرة يعود إليها الفضل في نشر التشيع في «الشام»، اعتمد عليها الإمام علي في حربه لمعاوية وقال فيها:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

(3) الشيخ جعفر المهاجر- التأسيس لتاريخ الشيعة (2) ستة فقهاء أبطال، ص15.

(4) ساطع محلي، حمص أم الحجارة السود1963-، ص30.

«جوبيتر» تابعاً لها. تظهر هذه الحقائق أن أهل حمص كانوا كثيري التقلب في الأمور الدينية، وسنوضح أسباب ذلك، حينه.[1]

يروي أبو الفرج الأصفهاني: «أن خطيب أهل حمص كان يصلي على النبي (صلعم) على المنبر وكان أهل حمص كلهم من اليمن، لم يكن فيهم من مضر إلا ثلاثة أبيات (مِن بات)، فتعصّبوا على الإمام، وعزلوه، فقال الشاعر ديك الجن الحمصي (وهو شيعي معتدل) يهجو أهل حمص:

سمعوا الصلاة على النبي توالى
فتفرقوا شيعاً وقالوا لا لا
ثم استمر على الصلاة إمامهم
فتحزبوا ورمى الرجال رجالا
يا آل حمص توقعوا من عارها
خزياً يحل عليكم ووبالا
شاهت وجوهكم وجوها طالما
رغمت معاطسها وساءت حالا[2]

هذه المواقف المتناقضة والمتضاربة لأهل حمص دفعت ياقوت إلى أن يقول «فقد التزموا الضلال أولاً وأخيراً، فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب».

واضح من كل ذلك، أن حمص لم تكن منعزلة عما كان يجري حولها من تغيرات، لاسيما أن شعبها عرف بشدة بأسه وحماسته وسهولة تفاعله وتكيّفه مع المتغيرات المختلفة، وحمص كونها تقع موقع القلب بالنسبة إلى سورية، فقد كانت البوتقة التي انصهرت فيها حضارات وشعوب

(1) راجع مكانة حمص الدينية ص54 من هذا الكتاب.
(2) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ج12، ص143.

وأديان ومذاهب متعددة. لذلك نراهم مرة من الناصبيين (المتدينين ببغض عليٍّ) ومرة أخرى من غلاة الشيعة يسبّون السلف. هنا نقف على أمر تعصبهم ودفاعهم عن المذهب «الدارج»- إن صحت التسمية.

- صراع القيسية واليمانية:

قبل الفتح الإسلامي، كان هناك صراع بين القبائل القيسية واليمانية، وعندما جاء الإسلام خفّت حدتها في عهد الخلفاء الراشدين، ومن باب المصادفة أو من باب الاختيار، يقول المؤرخ المعاصر وليد قنبار، وضع اليمانيون في حمص، والقيسيون في حماه، وكان بنو أمية عندما يريدون أن يشغلوا الناس عن عمل السياسة، يثيرون النعرات بين حمص وحماه»[1].

يقول المثل الشائع «أذل من قيسي في حمص»، ذلك لأن حمص حسب ما يرد في مجمع الأمثال: «كلها لليمن ليس فيها من قيس إلا بيت واحد».[2] «فهم أذلاء لقلتهم».[3]

ومما ذكره اليعقوبي: «إن أهل حماة قوم من يمن، والأغلب عليهم بهراء وتنوخ، وأهل حمص جميعاً يمن من طيء وكندة وحمير وكلب وغيرهم من البطون». ومن الأدلة الظاهرة على عراقة العرب في حمص، المثل المشهور «أذل من قيسي في حمص». وأصله كما يروي الرواة: أن رجلاً اسمه قيس من بني عدنان تخاصم مع رجل من بني قحطان، وطالت الخصومة بينهما حتى تحولت إلى حقد قاتل، وتعصّب لكل منهما فريق من العرب، وأدى ذلك إلى حدوث فتنة شديدة بين الحجازيين واليمانيين سقط فيها ضحايا كثيرون من الفريقين. وتوارث حقد السلف وامتدت هذه

(1) جريدة الحياة، الأربعاء -27 10-1999.
(2) مجمع الأمثال، للميداني، 1/ 283.
(3) كتاب جمهرة الأمثال تأليف الأديب أبي هلال العسكري1/ 471.

العصبية إلى الحضر، فحدث بينهم ما حدث بين البدو. وغلب اليمانية في حمص وذل بها القيسية، وهجر أفرادها المدينة ولم يبق منهم فيها غير رجل واحد، فكان ذليلاً للغاية، حتى ضرب المثل في المذلة».[1]

وفي العهد الأموي كان التمركز الأكبر للعصبية اليمانية في حمص. والعرش السوري قام على عواتق اليمانية، وكان عداؤهم للقيسية (عرب الشمال) مستحكماً راسخ الأصول.[2] ولكن أحد الكتاب الشيعة -أشرنا إليه سابقاً- يقول «الثابت أن التشيع في الشام يماني. والمعروف أن سياسة معاوية الشامية، مالت إلى القيسيين في مقابل اليمانيين، حتى ثار الزبير فقلب عبد الملك الآية».[3]

وعندما انتقل مركز الخلافة إلى العراق في العهد العباسي وانتهى «ربيع دمشق»، اشتد النزاع في سورية المسلمة، بين القيسية واليمانية، وهما الحزبان اللذان ظهرا بمختلف الأسماء. وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام، فاعتمدوهم في شؤونهم. وبلغ النضال أشده في خلافة هارون الرشيد، وفيه سُفكت دماء كثيرة في دمشق وحوران والبقاع والأردن وحمص، ونشب القتال واستمر سنتين بلا هوادة وذلك - فيما روي- لأن قيسياً سرق بطيخة من بستان يماني. حتى أن الخليفة فكر في تجريد حملة تأديبية عليهم يقودها بنفسه، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة، فجرد هذا المقاتلين من كل سلاح حتى لم يدع رمحاً ولا فرساً.[4]

ويظهر أن الخلفاء العباسيين كما يقول الرحالة والمؤرخ وصفي زكريا الذين ابتعدوا واتخذوا بغداد عاصمتهم، لم يُعنوا بشأن الشام،

---

(1) تاريخ حمص، ص27.
(2) تاريخ سورية، ص151.
(3) شوقي المهاجر، مرجع سابق، ص20.
(4) تاريخ سورية، ص165.

ولم يرسلوا إليها عمالاً ذوي كفاءة أو إدارة حسنة، فكان ذلك توطئة لحدوث الفتن والحروب الأهلية، خصوصاً في حمص وجندها. وهذه الفتن كانت تارة من القيام لإعادة الملك إلى الأمويين، وتارة من تأجّج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين -وأهل حمص يمانيون نزاعون إلى الثورة- وتارة من الوثوب بأولئك العمال، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين، كما جرى في عهد الرشيد سنة 190هـ، والأمين سنة 194هـ، والمتوكل سنة 240 و241هـ، وفي عهد المستعين مرة سنة 248هـ، وثلاث مرات سنة 250هـ، وفي كل فتنة أو وثبة كان ينال حمص وأهلها من الحرق والخراب والتنكيل شيء غير يسير، ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين، ظهرت ملوك الطوائف في الأقطار البعيدة... وفي عام 290هـ وصل زعيم القرامطة أبو شامة من دمشق إلى حمص، أطاعه أهلها، وفتحوا له أبوابها خوفاً منه، وخطبوا له على منابره، وبذلك نجت حمص من شر القرامطة، على خلاف ما جرى بحماة وسلمية والمعرة وغيرها.[1]

إضافة إلى ما سبق، ونتيجة للمعارك التي خاضها أهل حمص ضد التتار سنة 659 و699، والخراب الذي أورثه تيمورلنك في عامة مدن الشام، والطاعون الهائل الذي حصد سكان حمص فيما حصده من بقية مدن الشام سنة 743هـ، وفتن الأعراب التي بدأت في تلك الحقبة، أضرّ كل ذلك بأرباض حمص وقراها الشرقية التي لا حياة لحمص بدونها، وحُطّ شأنها فوق ما كان منحطاً من قبل، بفعل الثورات والروم (358هـ- 381هـ- 388هـ) والزلازل والصليبيين[2].

---

(1) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، مرجع سابق ص321.

(2) مرجع سابق 327.

أهل حمص في نظر الجغرافيين والمؤرخين

المدن كالبشر، لها ناسوت قد يستمد عناصره من مناخها.

نجاة قصاب حسن

بشكل عام يعود التأليف في فضائل البلدان إلى القرن الثالث الهجري. وقد دفع إلى التأليف فيها عوامل كثيرة، أهمها يرجع إلى أسباب سياسية، أو عصبية.[1] ونحن إذ نستعرض ما قيل عن حمص سواء من مدح أو ذم، سنلاحظ أنها لم تخرج عن ذلك الإطار.

بالرجوع إلى النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي، نقرأ للشاعر والجغرافي اليوناني أفينوس، وصفاً لروائع أذهلته عند زيارته حمص، يقول: «من الجهة التي تخرج نيران النهار من مهدها، ترفع حمص رأسها المجلل بالضياء. أما جوانبها فتمتد بعيداً على الأرض في كل اتجاه، بينما ترتفع أبنيتها حتى تلامس عنان السماء. ويبدي سكان المدينة ذكاءهم بممارسة كل أنواع الدراسات الجادة التي يندفع إليها شيوخها بحماسة أكبر. وعلى مدى غير بعيد تقوم مياه العاصي اللازوردية اللون بشق الأرض بتيارها وتتدفق معربدة حتى تلامس أرياف أفاميا قبل أن تصل إلى مدينة أنطاكية في نهاية المطاف».[2]

و«الأصطخري (950م) يقول، إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة. ويقول المقدسي، إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة».[3]

---

(1) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم (456هـ)، وابن سعد، والشقندي (629هـ)، نشرها، ص1.

(2) إمبراطورات سوريات، جان بابليون، ترجمة يوسف شلب الشام، ص24.

(3) قصة الحضارة، ج13، ص157.

ويرى ابن الفقيه الهمذاني [318 هجري] في كتاب البلدان، أن «مدائن الجنة أربعة: حمص، ودمشق، وبيت جبرين، وضفار اليمن».

ويروي المسعودي في تاريخه (956م-346هـ) أن عمر بن الخطاب، لما فتح العراق والشام ومصر، كتب إلى أحد حكماء ذلك العصر قائلاً: «إنّا أُناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها. فكتب له الحكيم عندما أتى على ذكر الشام ما يلي: أما الشام فسُحُبٌ وآكام، وريح وغمام، وغداق ورُكَام، ترطب الأجسام وتبلد الأحلام وتصفي الألوان، لاسيما أرض حمص فإنها تحسن الجسم وتُصفي اللون وتبلد الفهم وتنزح غوره وتجفي الطبع وتذهب بماء القريحة، وتنصب العقول».[1]

وفي كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، يشرح لنا المقدسي (335-390هـ) ما عاناه من جهد لكي يضع هذا الكتاب الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أحدها «ما عاينه» فلم يبق إقليم إلا وقد دخله وأقل سبب إلا عرفه، والثاني ما «سمعه من ثقات أهل العلم والوزراء»، والثالث «ما وجده في الكتب المصنفة». وذلك كله حتى يعلم الناظر في كتابه أنه «لم يصنفه جزافاً ولا رتبه مجازاً ويميزه من غيره، فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع، ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم». ذكرنا تلك المعاناة، لأن المؤلف توصل بعد كل ذلك إلى حكمة يعطينا إياها قائلاً: «اعلم أن كل بلد فيه صاد فأهله حُمق إلا البصرة، فإن اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر فنعوذ بالله»، وهو عندما يذكر خصائص الأقاليم يقول: «لا أعصى من أهل

(1) مروج الذهب ومعادن الجواهر، المسعودي، المجلد الثاني، ص66-67.

دمشق، ولا أوطأ من أهل مصر ولا أبله من أهل البحرين، ولا أحمق من أهل حمص...».

ويصف لنا حمص على النحو التالي: «حمص ليس بالشام بلد أكبر منها، وفيها قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج أكثر شربهم من ماء المطر ولهم أيضا نهر. ولما فتحها المسلمون عمدوا إلى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً عنده بالسوق قبة، على رأسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الأرياح الأربع، وفيه أقاويل لا تصح والبلد شديد الاختلال متداع إلى الخراب والقوم حمقى».[1]

وابن جوقل -عاش في القرن العاشر الميلادي- في كتابه «صورة الأرض» يقول إن: «حمص مدينة مستواة، وخصبة أيضاً، وكانت أيام عمارتها صحيحة الهواء، من أصح بلدان الإسلام تربة، وكان في أهلها خبال ويسار، فدخلها الروم غير دفعة فأحالوها..».

أما الرحالة ابن جبير (ت 614هـ -1217م) فيناقض نفسه عندما يصف المدينة، فهو يقول: «حمص حرسها الله تعالى، فسيحة الأسطحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم، بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر،لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظمأها وتسقى على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي، وهي منه بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها... وأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه..». ويضيف: «سألنا أحد الأشياخ بهذه

---

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي (335، 390هـ)، ص143.

البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟ فقال وقد أنكر ذلك: حمص كلها مارستان! وكفاك شهادة أهلها فيها!».

في كتابه، آثار البلاد وأخبار العباد يقول القزويني(1203-1283م)، ص185: «حمص مدينة بأرض الشام، حصينة أصح بلاد الشام هواء وتربة، وهي كثيرة المياه والأشجار ولا يكاد يلدغ بها عقرب وتسهى حية... وأهلها موصوفون بالجمال المفرط والبلاهة»، ويضيف القزويني: «أما حكومة قاضي حمص فمشهورة، ذُكر أنه تحاكم إليه رجل وامرأة، فقالت المرأة هذا الرجل أجنبي مني وقد قبلني، فقال القاضي: قومي إليه وقبليه كما قبلك، فقالت: عفوت عنه! فقال لها: مري راشدة. ويضيف إن أشد الناس على عليٍّ، رضي الله عنه، بصفين مع معاوية، كان أهل حمص وأكثرهم تحريضاً عليه وجداً في حرب، فلما انقضت تلك الحروب ومضى ذلك الزمن، صاروا من غلاة الشيعة، حتى أن في أهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصيرية، وأصلهم الإمامية الذين يسبّون السلف».

ويلتقي ياقوت الحموي/ نسبة إلى حماة 567هـ، 626-1228م/ مع القزويني في ذلك، ويضيف عليه: فقد التزموا الضلال أولاً وأخيراً، فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب» ويقول ياقوت الحموي أيضاً:» ومن عجيب ما تأملته من أمر حمص، **فساد هوائها وتربتها، اللذين يفسدان العقل، حتى يضرب بحماقتهم المثل**».

يقول شيخ الربوة شمس الدين الصوفي(654هـ-1256م)،(727هـ-1327م)، صاحب كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» «... حمص مدينة قديمة... **ماؤها وهواؤها صحيح**. ومن حسن بناء حمص، أنه لا يوجد فيها دار إلا وتحتها في الأرض مغارة أو مغارتان وماء ينبع للشرب.

وهي مدينة فوق مدينة. **وأهل مدينة حمص يوصف عامتهم بقلة العقل، ويحكى عن سوقتهم حكايات تشبه الخرافات».**[1]

أما أبو الفداء [المتوفى 732هـ] (صاحب حماه، وهي مسماة باسمه) فيقول في كتابه تقويم البلدان: «حمص مدينة أولية، وهي إحدى قواعد الشام، وهي ذات بساتين شربها من نهر العاصي» ويضيف: «قال العزيزي: **مدينة حمص أصح بلدان الشام هواء..**».

ويصف الرحالة ابن بطوطة [ولد 703هـ، 1304 م] رحلته لحمص قائلاً: ثم سافرت إلى مدينة حمص، وهي مدينة مليحة أرجاؤها مؤنقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع...، **وأهل حمص عرب لهم فضلٌ وكرم..**».

أما الشريف الإدريسي، فيقول في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»: «حمص مدينة حسنة في مستو من الأرض، وهي عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها.. **ومسرات أهلها دائمة وخصبهم رغد ومعايشهم رفيقة، وفي نسائها جمال وحسن بشرة.. وهواؤها،أعدل هواء يكون بمدن الشام**».

وفي كتاب «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان» لمحمد بن الخانجي نقرأ: «حمص... مدينة جميلة قديمة، واقعة في مستوى من الأرض كانت سابقاً من أكبر البلدان وأحسنها، وهي خصبة الأراضي، كثيرة المزارع والبساتين، يسقيها نهر العاصي، وهي **جميلة الهواء فيها كثير من الجمال المفرط والفطنة، وإن كان ظاهر أهلها يوهم البلاهة** وصناعتها رائجة، ولأهلها براعة في الأنسجة القطنية والحريرية».[2]

---

(1) تاريخ حمص، عيسى أسعد، ص261.

(2) ساطع محلي، مصدر سابق، 1963، ص 26-27.

ونجد في رأي لاحق، التأثر برأي أغلب السابقين، ففي كتاب أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني (توفي 1019 هـ، 1610م) جاء أن حمص مدينة حسنة بالشام في مستوى من الأرض، أصح بلاد الشام هواء وتربة وهي كثيرة المياه والأشجار، ولا يكاد يلدغ بها عقرب... وأهلها **موصوفون بالبلاهة**.[1] وفي موقع آخر من الكتاب، أن «**أهلها في خصب وأرغد عيش** وفي نسائها جمال فائق».[2]

أما الدمشقي(1888م)، فيرى: «مدينة حمص، جيدة التربة، معتدلة الهواء، متسعة الأرجاء، تحيط بها قرى كثيرة، ولكن **أكثرهاخراب نظراً لاعتداء عرب البادية عليها**. وأهالي المدينة نحو عشرين ألف نسمة ثلثهم نصارى والباقي من المسلمين. ولم أرَ فيها نصرانياً غير مولع بالسكر. وكثيرون منهم يكتبون خطاً جميلاً.**وقد خرج منها أفراد مشهورون بالعقل والذكاء حال كون عامتهم تغلب عليهم السذاجة**».[3]

ومن القرن الماضي وتحديداً عام 1963، نقرأ في استطلاع أجرته مجلة العربي عن حمص، أن: «شوارع حمص» تختلف عن شوارع أي بلد آخر... وسياراتها أكثر ضوضاء وجلبة من أي سيارات أخرى..حتى أرصفتها لا يمكن السير عليها لأنها مغطاة ببضائع الباعة. وتحت الأشجار في شارع السرايا، تجري المجادلات والاتفاقات، والمفاوضات، بين أهل البادية، **وأهل حمص الأذكياء**، الذين يعتبرون من أمهر الوسطاء في عالم التجارة... وتاريخ مدينتهم يشهد بأنها كانت «همزة وصل» بين العالمين القديم والحديث... فحمص تشترك مع حلب ودمشق في السيطرة على حركة التجارة والمرور بين الشرق والغرب، والفرس والروم، ووادي

(1) أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني، ص353.
(2) 2 أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني، ص305.
(3) تاريخ حمص عيسى أسعد ص386.

النيل، ووادي دجلة، حتى أن هذا الطريق الأخير، الذي كان يربط بين أقدم حضارتين، يعتبر، في الوقت نفسه، أقدم طريق تجاري عرفه العالم![1].

أما محمد ناجي العطري محافظ حمص خلال عقد التسعين من القرن الماضي الذي تولى منصب رئيس الوزراء فيما بعد فيقول إن المحطة «التي أعتز فيها هي محطة حمص، حمص كانت مدرسة بالنسبة إلي، أنا تعلمت من حمص العمل الإداري، وتوجد نصيحة دائماً أقولها لا توجد حاجة لتبعث مسؤولاً لدراسة الأمور الإدارية وكي تسلمهم موقع مسؤولية ابعثهم إلى حمص...

خصوصية حمص تأتي حسب ما يرى العطري من أنها مجتمع متميز عن غيره من المجتمعات (ذكي متحرر متطور) هناك تكافل اقتصادي لا نراه في غيره من المجتمعات، يقول: أنا أحببت المجتمع الحمصي ويمكن هم بادلوني الشعور نفسه فكانت العلاقة بيني كمسؤول وبينهم كمجتمع بدءاً من البادية السورية وحتى الحدود اللبنانية عميقة. يضيف: فترة خدمتي في حمص كان فيها انطلاقة، ويكشف لنا أن أداءه «في حمص هو السبب الرئيس في مجيئي إلى دمشق، فوجئت وأنا أحد الناس الذين فوجئوا كنت أتوقع مجيئي من حمص إلى محافظة أخرى، ثم في حمص يوم التغيير الوزاري فوجئت وأسميها نقلة نوعية بان أنتقل من محافظ إلى نائب رئيس مجلس وزراء من دون المرور في مرحلة وسطية[2].

هكذا رأوا حمص، فمنهم من زارها ومنهم نقل ما رواه غيره، منهم من وصف أهل حمص بالذكاء، وأغلبهم وصفهم بالبلاهة واليسار. في المحصلة معروف أن الرحالة لا يختار كما يفعل سائحو اليوم الوقت الذي

---

(1) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، 1963.

(2) محمد ناجي العطري، صحيفة تشرين، 9 تشرين الأول 2005.

يصل فيه إلى منطقة ما، وبالتالي لا يستطيع أن يتحكم بطقسها، كما أن طبيعة حمص تعرضت للتخريب كما يظهر على يد الروم، والبدو. ويبدو من رأي ابن جبير أنها تعرضت للجفاف. لكن كلا الأمرين يخصّ طبيعة حمص. أما أن تكون تربة حمص وهواؤها مبرراً لوسم أهل حمص بالحُمق والبلاهة، بتلك السطحية ومن دون مقدمات، فأمر تعكس الفصول السابقة واللاحقة أسبابه.

طبيعيٌ لمن يكّون رأياً عن أهل منطقة ما، أن تؤثر معاملة أهلها في تكوين الانطباع عنهم. مثلاً «حين جاء المتنبي إلى مصر حمل عليه سيبويه المصري (أول نكتي شهير في مصر، عاش في عهد كافور الإخشيدي) حملة شعواء، وكان ذلك من الأسباب التي نفرت المتنبي من أهل مصر وجعلته يهجوهم بشعره الرائع».[1]

بشكل عام، فإن إثارة الإشاعات حول مدينة مهمة، يكون إما بدافع المداعبة أو الإقلال من أهميتها أو تفريغاً لعصبيات دينية أو سياسية، فإذا ناقشنا رأي ياقوت الحموي مثلاً وجدنا موقفه- إذا استثنينا العصبية المحلية بين الحموية(القيسية) وأهل حمص(اليمانية) وتشيعه- نفهم أن اليوم الذي وصل فيه ياقوت حمص كان فصل شتاء، وشتاء حمص غزير المطر كثير الزوابع والعواصف الثلجية، وما تجره من برد وصقيع.[2] هذا بالإضافة إلى الأثر المديد للرياح الشهيرة التي تهبّ على المدينة من الغرب، وهذه الرياح هي التي جعلت أشجار حمص تميل وتنحني.[3] ولكن ذلك لا يعني إلا أنه استغل مناخ المدينة ليعكس موقفه من أهل حمص.

---

(1) علي مروّة، موسوعة الأدب الضاحك، ج2، ص11-12.

(2) حمص دراسة وثائقية في الحقبة من 1840-1918م نعيم الزهراوي ومحمود السباعي، ص201.

(3) حمص... رحابة المكان، مرافئ الزمان، العربي- العدد -456 تشرين الثاني 1996.

ونحن لاحظنا اختلاف آراء الرحالة سابقاً، وتأثيرهم فيمن أتى بعدهم. قال أحد أبناء حمص: إن تيمورلنك لم يصب حمص بمثل ما أصابها به ياقوت الحموي! هذا الرجل الذي يدعي أنه حموي بينما هو رومي لحماً ودماً، وقد انتحل صفة الحمويين ليشفي غليله من الحمصيين والحمويين في آن واحد: يشنّع على حمص، ويعيش على حساب حماة بالصحة والعافية.[1]

وكونه لم يكن هناك وسائل متطورة للتأكد من رأي الرحالة، فإن رأيه كان يتداول من خلال كتبه، حتى يأتي رحالة آخر يستفيد من رأيه لينفيه أو يؤكده أو يعلق ويضيف عليه كما لاحظنا. ولكن خطورة الموضوع تكمن في أن المعلومة الأولى تبقى الأرسخ في الذهن كما أن الرواية تتعرض إلى إضافات عندما تخضع «للمعالجة الشعبية» فهي تضخّم وتُؤول... إلخ، وبالتالي ليس من المستغرب أن يقول اليوم شخص لحمصي، وهو على يقين في أغلب الأوقات، هل صحيح أن أهل حمص مجاديب؟

هل يمكن العثور في كتب التاريخ عن وصف موضوعي لمدينة حمص خارج إطار التحزبات والتعصبات؟

الأمر ليس مستحيلاً... ولكن في مكان يبعد عن مدينة حمص آلاف الكيلومترات، وتحديداً إلى بلاد الأندلس، لننظر ما كتبه علماؤها فيما يخص مدينة إشبيلية «**حمص الأندلس**»:

إشبيلية أو حمص الأندلس:

مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وأهلها ذوو أموال عظيمة وتجارات رابحة، **وهي من أحسن مدن الدنيا ويضرب بأهلها المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة**، ويعينهم على

(1) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، 1963.

ذلك واديها الفرج وناديها البهيج. وقال بعضهم في إشبيلية، إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها **ومدينة الأدب واللهو والطرب**، وفيها كثير من المتفرجات والمتنزهات.[1] من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني، ووادیها لا يخلو من مسرة، فجميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناءٍ عن ذلك، ولا منتقد ما لم يؤدِّ السكر إلى شر وعربدة. وقد رام **من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته. وأهله أخف الناس أرواحا وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب، قد مرنوا على ذلك، فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه، ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً**. [ولكن ذلك لا يعني أنها مدينة مستهترة]، فعلماؤها في كل صنف رفيع أو وضيع جداً أو هزلاً فأكثر من أن يعدوا، وأشهر من أن يذكروا.[2] ولما تملّك بنو أمية الأندلس، كما يقول ياقوت الحموي بعد انتقالهم من الشام أيام هربهم من بني العباس، سموا عدة مواضع بالأندلس بأسماء مدن الشام، **فسميت «غرناطة بدمشق الأندلس لأنها أشبه شيء بها»**.[3] **ونزلها أهل دمشق، ونزل أهل حمص إشبيلية، فسميت حمص الأندلس لأنها أشبه شيء بها**، كما نستدل من تسمية غرناطة، هكذا هي حمص الشام، خارج إطار التحزبات والعصبيات ألم تشبه إشبيلية بحمص كيف لا، وحمص الأندلسية «**مدينة الأدب واللهو والطرب**»، أما حمص الشامية فهي «**كعبة**» اللهو والأدب والطرب، كما سنرى بعد قليل.

---

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني (992-1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج1، 157 وما بعدها، دار الكتب العلمية، بيروت 1995.

(2) 2 فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم(456هـ)، وابن سعد، والشقندي (629هـ)، نشرها، ص50-51-52.

(3) نفح الطيب، مرجع سابق،1/ 173.

وهكذا، نجد أن وصف حمص الأندلسية، يتطابق مع وصف حمص الشام، ولكن أهلها يوصفون **بأنهم أخف الناس أرواحاً وأطبعهم نوادر وأحملهم للمزاح**، هذه الصفة حُولت في حمص الشام إلى بلاهة وحُمق «بالمعنى المادي» للكلمة.

ألا يبين ذلك، أن ما وصف به أهل حمص، لم يكن إلا كلمات أقحمت في كتب التاريخ والأدب والجغرافيا،إلى حد يبدو فيه التناقض ظاهراً في أقوال من كان **ناقماً** على أهل هذه المدينة. مدفوعاً بتعصبات طائفية وسياسية جعلتنا حتى اليوم **نعيش ماضينا حاضراً أبدياً**.

الأحمق الحمصي في الأدب العربي

قمنا فيما سبق بعملية «التداعي الحر»، لنعرف طفولة النكتة الحمصية، ورأينا كيف برزت عوامل الكبت التاريخي (السياسي والديني)، وفعلت فعلها بشكل ملحوظ في طمس الأسباب الكامنة خلف «شخصية الأحمق الحمصي». ولكن هل تلك الأسباب كافية لأن يستمر التندر على أهل حمص أكثر من 1400 سنة؟

من العوامل التي أدت إلى استمرار التندّر على حُمق أهل حمص، مساندة الأدب للتاريخ. إذ حفظ لنا هو الآخر، الكثير من الحوادث عن «الأحمق» الحمصي. و«لكثرة ما ضحك المجتمع العربي من المغفلين والحمقى (بشكل عام)، قام بعض أئمة الأدب والفكر، بجمع أخبارهم ونوادرهم»،[1] فكانت فرصة لإيراد الأحمق الحمصي بين صفحات كتبهم، حتى أن بعض الأدباء صنّفوه بين «الحمقى والمغفلين على الإطلاق». (**المغفل: من لا فطنة له**)، وخاصة ابن الجوزي.

---

(1) أدبنا الضاحك، ص93.

لا بدّ أن نعرف أولاً، كيف نظرت العرب إلى الأحمق؟

«قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، **والحمق غريزة** لا تنفع فيها الحيلة، وهو داء دواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم **قال رسول الله: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل»**... والسكوت عند الأحمق جوابه. نظر أحد الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجر. ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والأحمق المؤذي هو من بقر سقر (جهنم)».[1] يقول الإمام الأوزاعي (ت157 هـ): بلغني أنه قيل لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال: نعم بإذن الله، قيل وتبرئ الأكمة (المولود أعمى)؟ قال: نعم بإذن الله، قيل: فما دواء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني (أعجزني).[2] هذا بعض مما رواه الأبشيهي عن الحمق، وهو يستند في روايته إلى ابن الجوزي، أما في الرواية المسيحية فقد جعل السيد المسيح أقسى عقوبة بين النعوت لمن يسم أخيه بالأحمق (متى 5: 22): «أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم».

يروي المسعودي في تاريخه: حادثة حصلت بين هشام بن عبد الملك ورجل من أهل حمص.[3] جاء فيها:

أن هشام بن عبد الملك عرض يوماً الجنود بحمص، فمرّ به رجل من

---

(1) المستطرف، مرجع سابق، 1/ 43-44.

(2) بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص17.

(3) نقلها بن الجوزي مختصرة.

أهل حمص، وهو على فرس نَفور، فقال له هشام: ما حملك على أن تربط فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والرحمن يا أمير المؤمنين، ما هو بنفور، ولكنه أبصر حَولتك فظن أنها عين غزوان البيطار، فقال له هشام: تنحَّ، فعليك وعلى فرسك لعنة الله. وكان غزوان البيطار نصرانياً ببلاد حمص كأنه هشام في حولته وكشفته.[1]

ابن الجوزي وأهل حمص

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، عالم وإمام، ولد وتوفي في **بغداد** (510-597 هـ). اشتهر بالأجوبة اللطيفة والمسكِتة فضلاً عن البديهة. منها أنه وقع نزاع بين السنة والشيعة ببغداد في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، فرضي الكل بما يجيب به الشيخ ابن الجوزي، فسألوه وهو في مجلس وعظه عن ذلك فقال: أفضلهما بعد رسول الله من كانت ابنته تحته، ثم نزل في الحال وذهب لئلا يعاودوه في ذلك. فقال أهل السنّة هو أبو بكر لأن ابنته عائشة كانت تحت النبي، وقالت الشيعة هو عليٌّ لأن فاطمة بنت النبي (ص) كانت تحته[2]! ونذكر أن روايات ابن الجوزي عن الأحمق الحمصي، كانت مادة رئيسة في اقتباسات الكتّاب والأدباء في الماضي والحاضر، يتناقلونها في الكثير من الأحيان على أساس أنها طرائف تبعث على الضحك، من دون معرفة الأسباب الكامنة خلفها.

في كتابه أخبار الحمقى والمغفلين وتحت عنوان «في ذكر **المغفلين من القضاة**» يقول ابن الجوزي[3]:

---

(1) مروج الذهب ومعادن الجواهر، المسعودي، المجلد الثالث، ص197.

(2) موسوعة الأدب الضاحك، مرجع سابق، ج6، ص59.

(3) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، دار الفكر العربي، ص96-97.أوردها عبد الغني العطري، في كتابه أدبنا الضاحك،ص218.

* قال أبو الفضل الربعي، حدثنا أبي قال: سأل المأمون رجلاً من **أهل حمص عن قضاتهم**، قال: يا أمير المؤمنين، إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهِم. قال: ويحك كيف هذا؟ قال: قدم عليه رجل رجلاً فادعى عليه أربعة وعشرين درهماً، فأقرّ له، فقال أعطه، قال: أصلح الله القاضي، إن لي حماراً أكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهماً وعليَّ درهماً وأدفع له درهمين، حتى إذا اجتمع ماله غاب عني فلم أره فأنفقتها، وما أعرف وجهاً (وسيلة) إلا أن يحبسه القاضي اثني عشر يوماً حتى أجمع له إياها، فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله، فضحك المأمون وعزله».

* وتحت عنوان في ذكر المغفلين من المؤذنين نقرأ: «كان سعيد بن سنان المهدي مؤذناً بجامع حمص؟ وكان **شيخاً صالحاً** يسحّر الناس في رمضان فيقول في تسحيره: استحثوا قديراتكم، وعجلوا قبل أن أؤذن فيسخّم الله وجوهكم وتحردوا».[1]

ونطالع في الباب الرابع والعشرين، وهو: في ذكر **المغفلين على الإطلاق**، قال أبو العيناء: كنت بحمص فمات لجارٍ لي بنت، فقيل له: كم لها؟ قال: ما أدري، ولكنها ولدت أيام البراغيث.[2]

* عن معمر أنه قال: دخلت مسجد حمص فإذا أنا بقوم لهم رواد، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون عليّاً بن أبي طالب ويقعون فيه، فقمت من عندهم، فإذا شيخ يصلي ظننت فيه الخير فجلست إليه، فلما أحس بي وسلم قلت: يا عبد الله ما ترى هؤلاء القوم ينتقصون علياً ويشتمونه، وجعلت أحدثه بمناقبه وأنه زوج بنت رسول الله وأبو الحسين وابن عم الرسول. فقال: يا عبد الله، ما لقي الناس من الناس،

---

(1) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص105.

(2) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص165. أوردها عبد الغني العطري، في كتابه أدبنا الضاحك، ص94.

ولو أن أحداً نجا من الناس، لنجا منهم أبو محمد رحمه الله، هو ذا يشتم وحده، قلت ومن أبو محمد؟ قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي، فقمت عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة، فخرجت من يومي.[1]

و يتابع بن الجوزي سرد أخبار المغفل الحمصي:

* حُكي أن جماعة من أهل حمص تذاكوا في حديث الأعضاء ومنافعها، فقالوا: الأنف للشم، والفم للأكل، واللسان للكلام، فما فائدة الأذنين! فلم يتوجه لهم في ذلك شيء، فأجمعوا على قصد القاضي ليسألوه، فمضوا، فوجدوه في شغل، فجلسوا على باب داره وإذ هناك خياط فتل خيوطاً ووضعها على أذنه. فقالوا: قد أتانا بما جئنا نسأل القاضي عنه، إنما خلقت للخيوط، وانصرفوا مسرورين بما استفادوا».[2]

* عرض هشام بن عبد الملك الجند، فأتاه رجل حمصي بفرس، كلما قدمه نفر. فقال هشام: ما هذا؟ قال الحمصي: يا سيدي هو جيد، لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

*** اجتاز أهل حمص بشيخ لهم، لم يكن فيهم أعقل منه، ولا أكمل، مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال**، فأوفدهم إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما وردوا الباب وأُذن لهم دخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أبا موسى، فعلم أنه أحمق وأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى. قال ومن جالست من العلماء؟ قال أبي، قال: وما كان يقول في عذاب القبر؟ قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومن حضر. ثم قال: يا شيخ من حفر البحار فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه: قد حفرها موسى حين طرق له. قال:

---

(1) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص134. نقل هذه الحادثة علي مروة في موسوعته عن الأدب الضاحك الجزء السادس، طرائف الأذكياء والمغفلين ص64-65.

(2) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص172-173.

فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه، وقال: والله ما علمتهما، ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد.

* وفد على الرشيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلاماً على رأسه فظنه جارية، فقال: السلام عليك يا أبا الجارية، فصفع وأخرج. فدخل الثاني فقال: السلام عليك يا أبا الغلام، فصفع وأخرج. فدخل الثالث فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: كيف صحبت هذين **الأحمقين**؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تتعجب منهم فإنهم لما رأوك بهذا الزي ورأوا لحيتك طويلة قدروا أنك أبو فلان، فقال الرشيد: أخرجوه، **قبح الله بلدة هؤلاء خيارهم**.[1]

وفي كتابه **الأذكياء** يروي ابن الجوزي[2]:

* «خرج بعض حذّاق المكدين (المحتالين من المتسولين) من بغداد إلى حمص ومعه امرأته، فلما حصل بها قال: إن **هذا بلد حماقة**، وأريد أن أعمل حيلة فتساعديني» (باختصار)، أمرها ألا تمر به إلا بعد سنة، وخلالها اعتزل في الجامع ولم يكلم أحداً طيلة هذه المدة، فعظم شأنه عند أهل حمص، وزاد مجلة، حتى أنهم كانوا يتمسحون به **واعتبروه أحد «الأبدال»**، وكان طلب من زوجته قائلاً: «إذا كان يوم جمعة حين يصلي الناس، فتعالي فاعلقي بي والطمي وجهي وقولي: يا عدو الله يا فاسق، قتلت ابني ببغداد، وهربت إلى ههنا تتعبّد، وعبادتك مضروب بها وجهك، ولا تفارقيني، وأظهري أنك تريدين قتلي بابنك، فإن الناس سيجتمعون إليك، وأمنعهم من أذيتك، وأعترف بأني قتلته وتبت، وجئت إلى ههنا أتعبّد، والتوبة، والندم، على ما كان مني، فاطلبي قودي (القصاص مني) بإقراري،

---

(1) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص172-173. أوردها عبد الغني العطري، في كتابه أدبنا الضاحك، ص95.

(2) ابن الجوزي الأذكياء، ص126-127-128.

وحملي إلى السلطان، فيعرضون عليك الدية فلا تقبليها، حتى يبذلوا لك عشر ديات أو ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم، **وحرصهم**، فإذا تناهت أعطيتهم في افتدائي إلى حدّ يقع لك أنهم لا يزيدون بعده شيئاً فاقبلي الفداء منهم، واجمعي المال وخذيه وأخرجي من يومك إلى بغداد، ولا تقيمي في البلد، فإني سأهرب وأتبعك». وكان ما خططا وعندما طلبت المرأة قتل الرجل دافع عنه أهل حمص قائلين: «**يا عدوة الله هذا من الأبدال، هذا قوّام العالم، هذا قطب الوقت**»، لكن المرأة أصرت على أخذ حقها وقتل الرجل «**فقال الشيوخ: يا قوم لقد ضللتم عن مداواة هذه المحنة، وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح**، فارفقوا بالمرأة واسألوها قبول الدية نجمعها من أموالنا» فجمع لها أهل حمص مائة ألف درهم، وأبت المرأة إلا «قتل القاتل» «فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم والنساء حللهن فأخذت المرأة ذلك وأبرأته من الدم» وغادرت حمص، ثم هرب «المحتال» في بعض الليالي وطلب، فلم يوجد، ولا عرف له خبر. حتى انكشف أنه كان حيلة، بعد مدة طويلة».

إذا نزعنا من بداية القصة عبارة هذا بلد حماقة، كيف يمكن أن ننظر إلى موقف أهل حمص؟

ميّز ابن الجوزي بين الأحمق والمجنون، «فالحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود، فمن ذلك أن طائراً طار من أمير فأمر أن يغلق باب المدينة! فمقصود الرجل حفظ الطائر. أما الجنون، فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعاً».[1] وبعد ابن الجوزي بمئة عام بدأ الناس يتلقون أخبار الحمصي مع توسيع دائرة حمقه إلى الجنون، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن **لتصنيع الشخصية**

(1) أخبار الحمقى والمغفلين، مرجع سابق، ص15.

المسلّية مزاجية خاصة تختلف بين شخص وآخر. خصوصاً أن الناس أخذوا يتلقون هذه الأخبار من دون وضعها في سياقها التاريخي.

مصادر أخرى:

ابن العبري (625-685 هـ)

يروي العلامة ابن العبري في كتابه نوادر مضحكة[1] المكتوب بالسريانية ثلاث نوادر عن المجنون الحمصي تحت عنوان نوادر المختلين عقلياً أو المجانيين ص 124:

* سئل رجل مجنون (دَيوُنو)[2]: احسب لنا عدد المجانين في مدينة حمص، أجابهم: لا أستطيع عدهم لكثرتهم، لكن إذا أردتم أستطيع أن أعد لكم العاقلين فيها.

* مجنون من مدينة حمص، شرس يضرب الناس كثيراً. فقام إليه رجل بيده عصا وأخذ يضربه بقسوة. فأنّبه الناس وقالوا له: اتركه فهو مجنون لا يعرف ما يصنع، فقال لهم المجنون: أرجوكم افهموا، كرمى لله، فهو لا يعرف أني مجنون.

* شوهد رجل في مدينة حمص «يتزوج» امرأته في الحديقة العامة، فأنّبه المارون على فعلته قائلين: ألا تخجل من عملك هذا أمام الناس،

---

(1) تونُييمكَحخوني، نوادر مضحكة للعلامة مار غريغوريوس يوحنا ابن العبري مفريان المشرق 1222. ترجم لنا هذه النوادر الأب يعقوب كامل طحان مشكوراً، وقد نبهنا إلى هذه النوادر المغترب عماد يعقوب. وابن العبري: من أكبر علماء القرن الثالث عشر. بدأ حياته كناسك ثم دخل سلك الكهنوت، وهو طبيب ومؤرخ وأديب ومن أعلام الكنيسة السريانية.

(2) وكلمة { دَيوُنو } الواردة في الأصل السرياني تعني: مجنون - مختل- معاق - غير مبال...

أجابهم: إذا كتب أحدكم مقالاً في جريدة، يريه للجميع من دون خجل، أما أنا فأكتب (أصنع) إنساناً كاملاً. فانفض الناس من حوله.

نلاحظ أن المجنون في هذه الروايات متغابٍ أو متباله...إلخ ويبدو أن لأخبار الحمقى والمغفلين علاقة خاصة مع الإنسان، فهي تكسر بتصرفاتها الروتين الذي اعتاد أن يقضي الأمور من خلاله، فتحقق المفارقة التي تجلب الضحك، وهذا ما استغلته حرب الأيديولوجيا الفكاهية أبرع استخدام.

الأبشيهي (790-850 هـ):

نعود إلى الأدب العربي وما رواه الأبشيهي عن الحمقى والمغفلين في «المستطرف من كل فن مستظرف» ونلاحظ الاقتباس عن ابن الجوزي فيها:

* «سُمع مؤذن حمص يقول في سحور رمضان تسحروا فقد أمرتكم، وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن فيسخّم الله وجوهكم[1].

* ومن نوادر القضاة يروي الأبشيهي[2]: «أن تاجراً عبر إلى حمص، فسمع مؤذنا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمداً رسول الله، فقال والله لأمضين إلى الإمام وأسأله فجاء إليه فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعذرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر، فسأل عنه، فقيل إنه في الجامع يبيع الخمر فمضى إليه فوجده جالساً وفي حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمراً، وهو يحلف للناس بحق المصحف أن الخمرة صرف ليس

(1) الأبشيهي، دار القلم بيروت، تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع،ص479.
(2) الأبشيهي، مرجع سابق 2/ 477.

فيها ماء وقد ازدحم الجمع عليه وهو يبيع فقال، والله لأمضين إلى القاضي وأخبره فجاء إلى القاضي فدفع الباب فانفتح فوجد القاضي نائماً على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة، فقال التاجر قلب الله حمص، فقال القاضي لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى فقال، يا جاهل، أما المؤذن فإن مؤذننا مرض فاستأجرنا يهودياً صيتاً يؤذن مكانه، فهو يقول ما سمعت وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعاً فتلوثت رجله بالعذرة وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى، ولما فرغ غسلها وأما المحتسب، فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم وعنبه ما يؤكل فهو يعصره خمراً ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع، وأما الغلام الذي رأيته، فإن أباه مات وخلف مالاً كثيراً وهو تحت الحجر، وقد كبر وجاء جماعة شهدوا عندي أنه بلغ فأنا أمتحنه، فخرج التاجر من البلد، وحلف ألا يعود إليها أبداً».

* ويورد القزويني(1203-1283م) حادثة كنا ذكرناها سابقاً فهو يقول: «أما حكومة قاضي حمص فمشهورة، ذُكر أنه تحاكم إليه رجل وامرأة، فقالت المرأة هذا الرجل أجنبي مني وقد قبّلني، فقال القاضي: قومي إليه وقبّليه كما قبلك، فقالت: عفوت عنه! فقال لها: مري راشدة».

ويورد كل من بن الجوزي والقزويني على لسان الجاحظ هذه الحادثة:

* قال الجاحظ: مررت بحمص فمرّ عنز يتبعه جمل. فقال رجل لرجل معه: هذا الجمل من هذا العنز؟ فقال له: لا ولكنه يتيم في حجرها.[1]

قال الجاحظ: مرت بحمص عنز تبعها جمل، فقال رجل لآخر: هذا الجمل لهذا العنز، فقال الآخر: كلا، إنه يتيم في حجره.[2]

---

(1) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، دار الفكر العربي، ص137.
(2) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص185.

نلاحظ في رواية ابن الجوزي أنه جعل الجاحظ شاهد عيان على الحادثة لتأكيد نظرته عن أهل حمص أنهم من «الحمقى والمغفلين على الإطلاق»، في حين لم يظهر الجاحظ في رواية القزويني إلا ناقلاً للحادثة، على الرغم من تحامل الاثنين على أهل حمص. وبالطبع من شاهد الحادثة له مصداقية أكبر. وعليه فابن الجوزي يحاول إثبات أن الحمصي «أحمق» وأن حمص «بلد حماقة»!

ويروي **صاحب الأغاني** هذه الحادثة تحت عنوان أهل حمص لا يستطعمون غناءه:

* قال حماد في خبره،قال أبي: حدثني بعض أهل العلم بالغناء عن حنين-الحيري- قال: خرجت إلى حمص ألتمس الكسب فيها، وأرتاد من أستفيد منه شيئاً، فسألت عن الفتيان فيها وأين يجتمعون فقيل لي عليك بالحمامات فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا فجئت إلى أحدها، فدخلته، فإذا فيه جماعة منهم فأنست وانبسطت وأخبرتهم أني غريب، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بي إلى منزل أحدهم، فلما قعدنا أتينا بالطعام فأكلنا، وأتينا بالشراب فشربنا، فقلت لهم: هل لكم في مغن يغنيكم، قالوا: ومن لنا بذلك، قلت : أنا لكم به هاتوا عوداً فأتيت به **فابتدأت في هنيات أبي عباد معبد فكأنما غنيت للحيطان لا فكهوا لغنائي ولاسوا به،** فقلت ثقل عليهم غناء معبد بكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه فأخذت في غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شيء وغنيت خفائف ابن سريج وأهزاج حكم والأغاني التي لي **واجتهدت في أن يفهموا فلم يتحرك من القوم أحد،** وجعلوا يقولون: ليت أبا منبه قد جاءنا، فقلت في نفسي أرى أني سأفتضح اليوم بأبي منبه فضيحة لم يفتضح أحد قط مثلها، فبينما نحن كذلك إذ جاء أبو منبه، وإذا هو شيخ عليه خفان أحمران كأنه جمال فوثبوا جميعاً إليه وسلموا عليه، وقالوا: يا أبا منبه أبطأت علينا **وقدموا له الطعام**

وسقوه أقداحا، وخنست أنا حتى صرت كلا شيء خوفاً منه، فأخذ العود ثم اندفع يغني:

طرب البحر فاعبري يا سفينة لا تشقي على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقون ويطربون، ثم أخذ في نحو هذا من الغناء، فقلت في نفسي **أنتم هاهنا لئن أصبحت سالماً لا أمسيت في هذه البلدة**، فلما أصبحت شددت رحلي على ناقتي واحتقبت ركوة من شراب ورحلت متوجهاً إلى الحيرة، وقلت ليت شعري متى تخب بي الناقة بين السدير والصنين محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولاً وقطعة من نون لست أبغي زاداً سواها من الشام وحسبي علالة تكفيني فإذا أبت سالماً قلت سحقاً وبعاداً لمعشر فارقوني.[1]

وإذا انتقلنا بعد ابن الجوزي وغيره بنحو 500 سنة، نقرأ للدكتور ميخائيل مشاقة الدمشقي(1888م): الذي رافق إبراهيم باشا في فتوحاته في البلاد السورية، وصفاً لما سمعه عن أهل حمص وشهده بنفسه، فيقول: «حُكي لي قصص كثيرة عن سذاجتهم، لا يسعني ذكرها إذ قد يكون مبالغاً فيها. وإنما أذكر منها ما شاهدته بعيني. وهو أنه في اليوم الثاني من دخولنا حمص (10 تموز 1832)، عرض للأمير إبراهيم باشا، أن في ناحية تل بابا عمرو قتلى وجرحى من أولاد البلد يراد الكشف عنهم. فأرسلني الباشا للتحقيق في الأمر، فوجدتهم ثمانية رجال، أربعة منهم قتلى وأربعة جرحى، فسألت الجرحى عما أصابهم؟ فقالوا إننا أتينا هنا للفرجة على مكان العسكر فوجدنا كرة محشوة وفتيلها ظاهر. فأردنا أن نرى كيف تصعد وتهبط فأشعلنا الفتيل ووقفنا حولها ننتظر صعودها، ولا نعلم ما أعاقها عن الصعود، ثم انفجرت عندما اقتربنا وأصابنا ما تراه.

(1) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الثقافة بيروت، 2/ 306-307.

فأذنت في دفن الموتى وعالجت المرضى ورجعت. ثم عرضت واقعة الحال لإبراهيم باشا فقال: اكتبها عندك لكي يقف منها المعلم بطرس كرامة[1] على ذكاء أهل بلده...

يروي علي مروه في موسوعته عن الأدب الضاحك، هذه الحادثة :

ذهب رجل من حمص ليشتري زيتاً فلم يسع الإناء فقلبه وقال للزيات: صب الفاضل هاهنا فأريق الزيت. وصب له الزيات الباقي على أسفل الإناء، فلما رجع إلى امرأته أراد أن يحكي لها القصة فقال لها: قلبت الإناء هكذا ليصب الباقي... فأريق الجميع...[2]

إذا دققنا في أخبار الحمقى والمغفلين بشكل عام، نلاحظ أنها في الغالبية كانت تتركز على أشخاص بعينهم محددين، كجحا، وهبنّقة...إلخ، في حين ذكر الحمصي كشخص خاص يتم من خلاله الدلالة على العام، وحاول من ذكر أخبارهم أن يركب القصص بما يناسب الصفات العامة للأحمق، كي يرتديها الحمصي. وبالتالي، نجحوا في إدخال الحمصي عالم الحُمق من أوسع أبوابه. وكون «الأدب الضاحك» عند العرب بشكل خاص وبقية الشعوب عموماً غني بالسخرية والتهكم وذم الآخرين، فإن ذلك يصلنا إلى نتيجة مفادها،بأنه **خلف كل نادرة أو طرفة أو نكتة يتحرك جيش من الخلافات.**

---

(1) شاعر مجيد، فصيح اللسان، له العديد من الموشحات وتأريخات مشهورة، من مواليد حمص 1774، فوضه الأمير بشير الشهابي الكبير تدريس ولديه وجعله معتمداً من قبله في كل ما له صلة بوالي عكا وبشؤون الدولة، وعين مترجماً في بلاط الأستانة وفيها توفي 1851(تاريخ حمص، لعيسى أسعد).

(2) موسوعة الأدب الضاحك، علي مروّة الجزء السادس، طرائف الأذكياء والمغفلين ص64-65.

المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية:
حمص وحماة «الأعداء الحميميون»

أخذ صراع العصبيات المحلية في سورية يتحول من طابعه التعصبي إلى مُزاح وتسلية منذ فترة طويلة، وتحديداً بعد «عصر الهزل» الذي ساد العصر العباسي، يمكن القول، إن ذلك حدث بعد أن اندملت جراح السوريين مما ألحقه بهم تيمورلنك، ولاحظنا الطابع الهزلي لهذه المصيبة التي حلت بأبنائها للتخفيف من وطأتها على الذاكرة الجمعية.

وهناك موضوع آخر حول تحول التعصب إلى مزاح وهزل، وهو ما يسمى المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية، ويكن اعتبارها نوعاً جديداً مارسه الشعر مع انتقال العصبية إلى حالتها الهزلية، لاسيما في القرن الثامن عشر، ولا أقصد أن هذه العصبية تلاشت تماماً، إنما تم تناسيها.

كان الشيخ مصطفى زين الدين الحمصي [1826-1900] أديباً وشاعراً، حسن الصوت، سافر إلى الأستانة، ومنها إلى المدينة المنورة، ورجع بعدما طاف البلاد المصرية، فرأى في تلك المدة أن الناس شديدو الإعجاب بالمنظومات الهلالية، التي ينظمها الشيخ محمد الهلالي الحموي [1820-1894]، المشهور ببلاغته ونظمه للشعر والموشحات، وكان ميالاً للجمال، أما الشيخ زين الدين فكان ميالاً لحب الطعام لدرجة التغزل به «وللناس فيما يعشقون مذاهب»، فقرر معارضتها، وكان كلما خرج الشيخ الهلالي بقصيدة عارضها على نفس البحر متغزلاً بالمآكل، وعندما كانت تحمل للهلالي، ويقرأها كان يمتلئ غيظاً ويبالغ في ذمه قائلاً: لا أشبع الله بطنه، وربما يعثر بحمصي في حماة فيقول له: أما آن لكم أن تشبعوا جوعانكم يا أهل حمص، وكان الحمويون يتلقون معارضاته «بأن يكثروا المزاح مع الهلالي باستحسان أقواله، ومعارضته لتقطيع الأوقات وجلب البسط..».

وأطرف ما جرى بينهما، هي الدعوى التي رفعها الهلالي عليه، وانتهت المحاكمة بأن أمر القاضي الزيني أن يكفّ عن معارضة الهلالي، وإلا عاقبه، لأنه لا يعارض غيره، وبعد انتهاء المحاكمة قبل أحدهما ذقن الآخر، وأقبلا بعد ذلك ليقبلا يد الباشا، فأجاز كل واحد منهما بذهب عثماني، فأعطى الهلالي ذهبه سراً للزيني، حتى يضمن أذاه. وما هي إلا أيام حتى عاد لمعارضته، فانطلق الهلالي وعقله يكاد يخرج منه، باحثاً عنه في شوارع حماة، فوجده في دكان قصاب، يأكل، فعزمه الزيني، فقال له الهلالي: أحاله الله سماً، ولا أشبع لك بطنك، ويحك، ما الذي دعاك إلى نقض العهد ومخالفة أوامر الحاكم، فقال الزيني، حملني على ذلك الجوع وحب الطعام. فقال له الهلالي: ولمَ لا تذهب إلى بلدك؟ أجابه: أنا ضيف، فهل رأيت أو سمعت من يطرد الضيف؟. فقال: يطرد إذا كان ثقيلاً مثلك. فقال الزيني: لو كنت ترى ما أفعله معك من الإكرام مقابل طردي. فقال الهلالي: ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين، ما عاذ الله أن أحل ببلدة أنت فيها..» ولكن كما يروى فقد أصبحا صديقين حميمين فيما بعد. ومن معارضات الزيني للهلالي، نختار هذه الأبيات: يقول الهلالي في أحد قدوه:

يـا بـدر حسـن كـم سـهـرت أراقـبـه
والـلـيـل مـالـت لـلـغـروب كـواكـبـه
مـا مـن كليم الـوجـد أنـت مصاحبه
إلا ومـغـنـاطـيـس حـسـنـك جـاذبـه
للحن والألحان * قم يا أخا الأشجان * بالحور والولدان
فالحب دين والجمال مذاهبه

ويعارضه الزيني:

يـا صـدر بصماكم بـرزت أحـاربـه
والـقـطـر طـابـت لـلـنـفـوس مشاربه
مـا مـن أرز والـلـحـوم تصاحبه
إلا ومـغـنـاطـيـس بـطـنـي جـاذبـه
بالكف والأسنان * بالله يا جوعان * قم سقسق الرغفان
فالجوع شينٌ والطعام يناسبه

وفي قدّ آخر يقول الهلالي:

نـبـه الـنـدمـان صاحي إن داعـي الأنـس صـاح
حيث مـن أيـدي الملاح لاح نـجـم الـكـأس لاح

يعارضه الزيني:

قـدِّم الـخـرفـان ناحي إن داعـي الـبـطـن نـاح
حيث من لحم الأضاحي راح هـم الـجـوع راح[1]

(1) عن ديوان تذكرة الغافل في استحضار المآكل، جمعه: محمد الخالد الحلبي الحمصي.

ليتوروجيا عيد المجانين المندثر

مجاديب أم مجاذيب؟

«قال ولد لأبيه: لماذا يقولون عنا مجاديب، أجابه أبوه نحنا **مجاذيب، ويحورون الكلمة حسداً**، دُقَّ عَ الخشب يا بني، فدق الولد، قال له الأب انتظر حتى أفتح الباب، قال له الولد: خليك قاعد يا بابا، أنا أفتح الباب».

يكتفي كثير من المدافعين عن «ذكاء أهل حمص» بالقول، عن عدم دراية أو جهل، إن أهل حمص مجاذيب وليسوا مجاديب التي حورت لوسم أهل حمص بالجدبة، ويعتقدون أن مجاذيب جاءت من «الجاذبية، أو جمال الشخصية».

في الحقيقة، لايختلف المعنيان لغوياً بحسب معجم المنجد الأبجدي، فالمجدوب هو الأبله، والمجذوب هو المختل عقلياً. لكن الناحية الاصطلاحية -إن صحت التسمية- تختلف تماماً. والأرجح أن التسمية حديثة مقارنة مع قِدم صفة الحمق التي نُعت بها أهل حمص، فهي ارتبطت على الأرجح بدخول **الطريقة الرفاعية**[1] في التصوف إلى حمص [1764م-1183هـ] حيث كان لمشايخ هذه الطريقة تصور كوني في

(1) مؤسسها أحمد الرفاعي (512-578 هـ 1118-1182 م).

تدبير العالم الذي يعيشون فيه فهم يرون أن الدرجات الصوفية هي كما يلي: أقطاب الدائرة، الأوتاد، **الأَبدال: ومسكنهم الشام**، الأنجاب، النقباء: مسكنهم المغرب، **المجاذيب وهم صالحي هذه الأمة وهم رجال الغيب المعنوّن (بأهل الله)**.[1]

وإذا عدنا إلى قصة المحتال لابن الجوزي، الذي حاول استغلال «حمق أهل حمص»، نلاحظ ورود ذكر للأبدال، وللأبدال مكانة مميزة لدى أبناء المنطقة، وهذا يتضح مما قاله الإمام عليٌّ بصفين «وأهل العراق يسبّون أهل الشام: يا أهل العراق لا تسبّوا أهل الشام، فإن فيهم رجالاً كارهين لما ترون، وإنه **بالشام يكون الأبدال**».[2]، وهذه القصة تُفَسِر ليس حمق أهل حمص وإنما استهتار بغداد في الشؤون الدينية، الأمر الذي حالت إليه البلاد في العصر العباسي كما مرّ سابقاً، من ناحية أخرى، إذا نزعنا عبارة «هذا بلد حماقة»، فذلك لا يدل إلا على احترام أهل حمص للدين ورجالاته.

إذاً، يقترب هذا الأمر من الصحة عندما نعلم أن الجذب الصوفي أو «المجذوب»، هي مرتبة من مراتب التصوّف، وعلى الرغم من انتشار الطرق الصوفية في العديد من البلاد الإسلامية، ومنها بلاد الشام، إلا أن حمص حازت أهمية خاصة في هذا المجال، وليس غريباً على حمص أن تكون **مركزية من الناحية الدينية**، ونحن نتذكر الآن ديانة الشمس الحمصية التي وصلت إلى روما في عهد جوليات حمص (جوليا دومنا، ومايا، وميسا) اللواتي حكمن روما.

---

(1) حمص دراسة وثائقية في الحقبة من 1840-1918م نعيم الزهراوي ومحمود السباعي، ص283.

(2) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(449-571 هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت 1995.

من هذه النقطة، فإن بعض التوسع في مجال تاريخ الأعياد والطرق الصوفية، له أهميته لعدة أسباب: أولها لأن انتقاء يوم الأربعاء يوماً للمجانين في حمص، لم يكن عبثياً، فله جذوره الدينية. وثانيها مرتبط بالأول، إذ كان لأهالي حمص طقوس يمارسونها في الأعياد بدايات القرن الماضي، ولها جذور راسخة في العبادات القديمة، وهي مستمرة إلى يومنا هذا وإن اختلفت تسمياتها.

يوم الأربعاء

أظهرت دراسة طريفة قام بها الباحثان الأمريكيان المتخصصان في مجال الرياضات كريستوفر دانفورث وبيتر دودز من جامعة فرمونت[1]، في شهر آب 2009 ونشرتها العديد من وسائل الإعلام العالمية[2]، أن يوم الأربعاء هو أتعس أيام الأسبوع، الطريف في الدراسة أنها اعتمدت في تحليل نتائجها على أكثر من 2.4 مليون مدونة الكترونية وضعت على موقع

(1) Measuring the Happiness of Large-Scale Written Expression: Songs, Blogs, and Presidents Peter Sheridan Dodds Æ Christopher M. Danforth, DOI 10.1007/s10902-009-9150-9

(2) «مقياس السعادة الجماعية» الذي ابتكره الباحثان هو برمجة تعتمد حسابات رياضية خاصة لقياس مزاج الجمهور والكلمات الأكثر استخداما في كل يوم من أيام الأسبوع، فوضعا سلماً يتراوح بين 1 و9 لقياس مدى إيجابية أو سلبية الكلمات. فحلت كلمات «انتصار» و«جنة» و«حب» في مراتب مرتفعة، بينما جاءت «صدمة» و«دفن» و«جنازة» فجاءت في أسفل السلم.

أظهرت الدراسة أن الأربعاء هو اليوم الأتعس في الأسبوع، بينما الأحد هو اليوم الأسعد، بما أن الناس يثرثرون خلاله عن الليلة التي قضوها السبت، ويليه يوم الاثنين لأن الناس يتمتعون فيه بشعور إيجابي تركته فيهم نهاية الأسبوع. وفي حلول منتصف الأسبوع، يصل الناس إلى أحط نقطة، فينغمسون في العمل (وكالة الصحافة الامريكية في 25-8-2009، راجع أيضا ديلي ميل dailymail البريطانية 24 أغسطس 2009، وصحيفة The Telegraph 23 Aug 2009).

«تويتر» خلال 4 سنوات، واستندا إلى مدى إيجابية أو سلبية الكلمات التي يستخدمها الناس في نشاطهم اليومي، لمعرفة أي يوم من الأسبوع هو اليوم الأسعد وأيها الأتعس.

ومعروف أن البريطانيين يتشاءمون بيوم الأربعاء أيضاً، ولكن الطريف أن ما أظهرته الدراسات الحديثة، كان معروفا بين الشعوب منذ أقدم العصور، فالتطير من يوم الأربعاء شهير في التراث العربي، ولكن المفارقة في الموضوع أن يوم الأربعاء الذي يأتي في منتصف الأسبوع هو «بيضة القبان» في طقوس الربيع القديمة الشهيرة في مدينة حمص، إلى أن نصل في نهاية الاحتفالات إلى إعادة التوازن للكون بعد الفوضى التي تسوده، وسنتوسع بالحديث عن هذه الطقوس في الصفحات القادمة، ولكن ما يهمنا أن نشير في هذه السطور قبل الدخول في الموضوع هو أن يوم الأربعاء اشتهر في ميثولوجيا العالم القديم حيث كان يتم الانتقال فيه بين الطقوس الرعوية والزراعية قبل الدخول في طقوس المناحة على الإله الميت الذي يجسده تموز في الديانات القديمة والمسيح في الديانات الحديثة.

وكون يوم الأربعاء لا يزال مرتبطاً إلى يومنا هذا، في ذاكرة مدينة حمص بيوم المجانين، فإن ذلك في حقيقة الأمر يعود بجذوره إلى معنى ديني/ ميثولوجي، لا معنى دنيوي مرتبط بشعب له يوم في الأسبوع يمارس فيه «جنونه».

كيلا نصعب الموضوع كثيراً سأنطلق من عيد لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا في هولندا وألمانيا وبلجيكا، وتحديداً في منطقة ليبمورخ جنوب هولندا والمناطق المتاخمة لها على الشريط الحدودي مع ألمانيا وبلجيكا وهي مناطق تدين بالكاثوليكية، مع التنويه إلى أن الاحتفالات أيضاً تعم باقي الدول الأوربية وغيرها لدى أصحاب المذهب الكاثوليكي فيها،

أي أن هذا العيد، تعترف به اليوم الكنيسة الكاثوليكية فيما تعتبره الكنيسة البروتساتنتية بدعة، والمعروف أن الصراع المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت الذين يتركزون في هولندا مثلاً في المناطق الشمالية، عمّ القارة الأوربية وأنهكها بالاحقاد والدماء، وهو صراع يشبه اليوم الصراع السني الشيعي في شرقنا.

يسمى هذا العيد بـ «الكرنفال»[1]، وموعده إما في شهر شباط أو آذار قبل بدء الصوم الأربعيني أو الصيام الكبير في العالم المسيحي، **وقد شاهدت هذا العيد أكثر من مرة وشاهدت مواكب الاستعراضات فيه والمسابقات والاحتفالات التي يسودها الطرافة والمرح والمجون والجنون**، ورأيت كيف يشرب الناس البيرة بطريقة مفرطة وكيف يسكرون ويتنكرون ويمارسون الجنون بكل فنونه وأشكاله، وهذا شبيه بما كان معروفاً في حمص كما سنلاحظ لاحقاً، أما ما يمثله هذا العيد في الفكر الديني المسيحي فهو أنه يسبق الصيام الأربعيني في المسيحية «أربعين يوم أو أكثر يبتعد فيه الناس عن اللحوم والمنتجات الحيوانية والمشروبات»، فقبل أن يدخل المؤمنون في صيامهم تسبقها أيام من الهرج والمرج والسكر والعلاقات الجنسية، **على أن تنتهي يوم الأربعاء ليدخلوا يوم الخميس في صومهم الكبير، وبهذا المعنى فإننا نفهم من الناحية الطقوسية/ الليتورجية أن يوم الأربعاء هو اليوم الذي تنتهي فيه مباهج الحياة ويدخل الناس في «بؤسهم وشؤمهم» لمدة تزيد عن الأربعين يوماً. وأعتقد أن الأصل في مصدر شؤم يوم الأربعاء يعود لهذه الميثولوجية الدينية القديمة، على اعتبار أن هذا العيد المسمى بالكرنفال، هو سابق للمسيحية والإسلام بقرون طويلة.**

---

(1) وهذا العيد المناطق التي تدين بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي...

وقد لفت نظري المفكر العراقي الصديق فاضل الربيعي خلال لقاء جمعنا في هولندا صيف 2013، إلى أن أسواق العرب القديمة التي كانت ترافق مواسم الحج في جزيرة العرب، لم تكن مجرد أسواق اقتصادية يتبضع منها الناس ويتاجرون وإنما كانت «كرنفالاً احتفالياً» بكل ما للكلمة من معنى، كالطقوس التي كانت تجري في أشهر أسواقها وهو سوق عكاظ، حيث كان الناس يشربون ويتنكرون ويهرجون ويمرحون ويقيمون المظاهر الاحتفالية والألعاب الرياضية المرتبطة بالمبارزة والفروسية، وفي هذه الأسواق يتساوى كل الناس، لا حاكم ولا محكومون، حتى صاحب الثأر لم يكن من حقه المطالبة بالثأر كيلا يدنس قدسية هذا العيد، حتى لو رأى غريمه...

ارتباط طقوس الأسواق وكرنفالاتها بموسم الحج، نجده واضحاً حتى التاريخ القديم للعراق فعيد «الأكيتو البابلي الشهير» أو رأس السنة البابلية التي كان يتم الاحتفال بها في الأول من نيسان،ولا يزال محافظاً على استمراريته لدى الآشوريين في سوريا والعراق إلى يومنا هذا، نجد أن لفظة «الأكيتو» تعني «الحياة» وهذه الكلمة كانت تلفظ وتسمى عند بعض الساميين «حِجتو»، وإلى اليوم لا تزال كلمة «حج» تعني في اللغة السريانية «الاحتفال أو الحفلة»[1]، وكان ترافق مظاهر الحج واحتفالاته في ذلك الزمن بذات المظاهر الكرنفالية التي نشاهدها اليوم في العالم «الليمبورخي» فمن أبرز طقوسه الاحتفالية هو اختيار كل منطقة لـ«أمير» الكرنفال فيها، وهذا الأمير يحكمها طيلة أيام الاحتفال، وله سلطات واسعة على الشعب الكرنفالي، وهذا الأمير يتم اختياره بمقدار ما يتحلى

(1) - أكيتو- عيد الربيع البابلي، جذوره، أيامه، عائديتهِ، طلعت ميشو، موقع الحوار المتمدن 2012 / 3 / 25.

من «خفة دم» ويثير الضحك والمرح بين الحضور، ومقدار ما يتحمل في جوفه من غالونات البيرة[1].

ما هو أصل هذا الكرنفال؟

تتبعت أصل هذا العيد في ميثولوجيا العالم القديم، وقادني البحث إلى أن هذا العيد بطقوسه التي تمارس اليوم في القرن الحادي والعشرين هي ذاتها التي كانت تمارس قبل آلاف السنين[2]، إذ نجد في تاريخ العراق القديم أن هناك طقساً آشورياً قديماً[3]، كان يتضمن تجسيداً لانفعالات الجمهور الصاخبة والركض الهوجاني في الشوارع والمصارعات الرياضية التي يقوم بها المؤمنون في الشوارع.

ويحدثنا المؤرخ البابلي بيروسيس الذي كان كاهناً بابلياً مطلعاً على الأمور ويتحدث عن معرفة، أن هناك عيداً يدعى عيد الـ«الساكي Sacae»

---

(1) موقع هنا صوتك الهولندي «الكرنفال في هولندا استمتاع قبل الصوم، محمد أمزيان، 3/ 2/ 2014. ويشير كاتب التقرير وهو مغربي الأصل إلى أن مدينة فاس في المغرب كانت من المدن المغربية المشهورة التي تختار «سلطانا» جديدا كل سنة، يتسلم السلطات الدينية والزمنية من السلطان الحقيقي، إلى أن ألغت الحماية الفرنسية هذا التقليد...

(2) حافظ «الكرنفال» على طقوسه التي عمت أرجاء العالم لدرجة تجعل الانسان يقف مدهوشا كيف أن العالم القديم الذي عرف عنه تعدد الآلهة كان متوحدا في احتفالاته الدينية وطقوس العبادة، وهو ما يدفع للاعتقاد من أن تعدد أسماء الآلهة كان في مضمونه يجسد «عقيدة توحيدية» امتددت من بلاد الهند والصين واليابان وفارس والعراق وسوريا وأوربا احتفالا بقدوم الربيع والإعلان عن ولادة الحياة وبدء دورة الخصب أو احتفالات الخريف التي تأتي تعبيرا عن الموت...

(3) الاختلاف في الاحتفال بين الشعوب حيث يمكن أن يأتي تارة في شباط أوآذار أو نيسان مرده إلى التبدلات المناخية واختلافها بين الشعوب.. والأكراد والفرس يحتفلون بعيد «نوروز/ عيد الربيع أو اليوم الجديد «نو» «روز» في آذار...

كان يتم الاحتفال به في بابل سنوياً، ويستمر لمدة خمسة أيام ويمثل مناسبة فرح عام، كان يتم خلاله تغيير الأدوار ما بين السادة والخدم إذ يصدر الخدم الأوامر إلى السادة وعلى السادة الطاعة، كما كانت ملابس الملك تعطى إلى شخص سجين محكوم عليه بالموت ليقوم بلبسها، فضلاً عن حقه في اللهو ومضاجعة خليلات الملك، ولكن بعد انتهاء فترة الخمسة أيام هذه تخلع عن هذا الشخص ملابس الملك ويجرد من حق إصدار الأوامر فضلاً عن الحقوق الأخرى، وكذلك يضرب بالسوط ثم يوقع عليه الموت شنقاً أو بالخازوق، إن هذا الشخص كان يحمل طيلة فترة الحكم القصيرة هذه لقبا هو «زومانس Zommanes» وقد سمى عالم الآشوريات الأمريكي «لانغدون» هذا العيد بـ«عيد الجنون»، وهو عبارة عن موكب يسير في المدينة يقوده «أحد ملوك المجانين» وهو يرتدي ملابس ملكية ويحف به رجال متنكرون يقومون بأعمال غير مسؤولة، ويتبع هذا الموكب جمهور في حالة الهذيان[1]، ويبرز في هذا المشهد الاحتفالي دور «شخص غير مسؤول» وهو على الأرجح أحد المحكومين بالإعدام الذي يقوم بدور الملك مؤقتاً بينما لا يقوم الملك الفعلي بأي شيء[2]. وسنرى كيف كانت طقوس الاحتفال بإله الشمس الحمصي تطابق هذه الاحتفالات بعد مئات السنين.

من تسمية عيد الساكي الآشوري، يمكن أن نستشف تطابق الكلمة مع كلمة «الساقي» والساقي هو الذي يقدم الخمر للناس، والساقي كانت له مكانة كبيرة في الشعر والأدب العربي، والمدهش حقاً أن نجد هذه

(1) راجع طقوس عبادة إله حمص «إيلاكا بعل» التي كان يقوم بها اباطرة روما الحمصيون...

(2) الرقم سبعة في حضارة بلاد الرافدين، الدلالات والرموز، حكمت بشير الأسود ص 77، اتحاد الكتاب العرب 2007.

التسمية الآشورية في اليابان حيث يطلق ذاتها على المشروب الوطني لليابانيين المسمى بـ«الساكي» وهو مصنوع من الأرز، وله مكانة مقدسة في كل احتفالاتهم وكرنفالاتهم، ولا أظن أن هذه التسمية جاءت من قبيل المصادفة وإنما تعود بجذورها إلى منطقتنا.

وعليه فإننا نجد من عيد الساكي الآشوري إلى احتفالات إله الشمس الحمصي التي انتقلت من حمص إلى روما إلى العالم إلى احتفالات الكرنفالات اليوم، نفس المضمون الطقوسي الذي يحفر عميقاً في الذاكرة الجَمعية لشعوب العالم.

وبالعودة إلى رمزية يوم الأربعاء التي تشير إلى البؤس والتشاؤم، فإننا نعرف أن العرب كان تعتبر يوم الأربعاء، رمز الشؤم والتطير عند العرب. فابن العباس يعتبر «آخر أربعاء في الشهر نحسٌ مستمر»، وأحد الشعراء يقول:

الأربـعـاء وحـش النحس فيه منكمش
والأخذ والعطا من ذوي المودات خطا

وأهالي جنوب اليمن يتشاءمون من يوم الأربعاء أو كما يسمى عندهم «الربوع، وإذا زل لسانك ونطقت بـ«يوم الربوع» هناك، فإن من يسمعك منهم قد يجيبك غاضباً بما يعتبر دعاءً قبيحاً: «يوم الربوع على قرنك وقرن أبوك !» ولا يوجد إلى اليوم دراسات تقدم تفسيرات واضحة لسبب هذا التشاؤم لدى أهل اليمن، ولكن من المؤكد أن الموضوع ضارب في القدم، ولا ننسى القرابة التي تربط أهل حمص باليمن، كما سبق وذكرنا.

وفي «ذاكرة التراث السوري» يمثل يوم الأربعاء المشاكسة والمعاكسة والإخفاق في العمل (متل الأربعا بنص الجمعة) ويحمل الحزن والهم (الأربعا دمعة)، (الأربعا يوم وِحِش والرزق فيه منكمش)، ومن يولد في هذا اليوم يكون رديء العيشة وسيئ الحال[1].

(1) حرب النكتة...بين حمص وحماة، خالد الأحمد، جريدة الخليج15- آب/ 1995.

«جدبها أهل حمص، يوم الأربعاء» وأصبح أهل حمص في هذا اليوم يحتفلون بعيدهم.

هل يصح أن يكون يوم الأربعاء يوماً للمجانين؟ وما هو يوم المجانين؟

ما يثير الاستغراب أن العرب كانت تعتبر هذا اليوم يوم «ندى ومكارم» إلى أنه أصبح يوماً للشؤم على حد تعبير الشاعر:

أقـــول لـيـــوم الأربـــعـــاء وقـــد غـدا
عـلـي بـوجـه أغـبـر الـلـون قـاتـم
بعثت عـلـي الأيـــام نـحـساً مـؤبـداً
بـشـؤمـك يـا يـوم الـنـدى والـمـكـارم

وقد عرف هذا اليوم في التاريخ الإنساني باسم الرمز التوتوني الأكبر «وودن» رمز الحكمة والشعر الحرب.

يقول الدكتورعبد الكريم اليافي من خلال كتابه «دراسات فنية في الأدب العربي»: ففي الفصل الذي يدرس به أعمال، المفكر الإسلامي الصوفي محي الدين ابن عربي، يورد د.اليافي قصيدة لابن عربي يبحث فيها اختصاصات يوم الأربعاء، تقول هذه القصيدة:

سـلام على عيسى المسيح ابـن مريما
نـبـي لـه الأرواح أيـــان يميما
عـلـى سـر إحـيـاء الـمـوات ونشرها
فـكـان **لـيـوم الأربـــعـــاء** متمما
وكـاتـبـه الـوهـمـي يـرسـل وهـمـه
على روح **الـفـرار** فيسمى مجسما
فـكـان لطيفاً فـي التحاليل صانعاً
وكـان شجاعا فـي التراكيب مقدما

يقول د. اليافي: ربط ابن عربي يوم الأربعاء بالسيد المسيح، ونعثر في القصيدة أيضاً على لفظ الفرار وهو الزئبق عند العرب، وأهميته عند القدماء كبيرة في الكيمياء، ومن المعروف أن لفظ الزئبق باللاتينية هو مركوريوس، وهو يدل أيضاً على الإله المسمى بهذا الاسم، وعلى كوكبه عطارد، وقد أعطى الإله مركور الروماني اسمه ذلك المعدن، وخصص له يوم الأربعاء، فيوم الأربعاء بالفرنسية Mercredi هو يوم مركور Mercur Day، ويعلمنا تاريخ الديانات وتاريخ الفكر الإنساني والفلسفة والميثولوجيا. يضيف د.اليافي، أن مركور عند الرومان يقابل هرمس عند اليونان، وهما يقابلان تحوت عند المصرين القدماء، وهو إله العلوم والفنون ومرشد الناس إلى أسرار الفكر الإلهي، ورمز النشاط الإنساني والصناعة وإله التجارة والسياحة، وهو أيضاً رسول الحب والوسيط بين الآلهة في قضايا الحب، وهو المكلف في المساء أن يقود الأرواح إلى مساكنها المظلمة. ثم نسب بعض الفلاسفة المسيحيين إذ ذاك بعض صفات الإله مركور كما لخصناها إلى السيد المسيح».[1]

وفي بعض الأساطير الإسلامية فإن الله خلق النور/ الشمس يوم الأربعاء[2]..

بعد كل ذلك هل يكون يوم الأربعاء يوماً للمجانين؟

إذاً، لا يصح من الناحية الدينية أن يكون يوم الأربعاء يوماً للمجاديب الحماصنة، إلا إذا نظرنا إليهم بعين العطف، كما ينظر الناس إلى المعتوهين وذوي العاهات والمجانين، لينتزعوا حسنة من الله تعالى على ما قدموه

---

(1) دراسات فنية في الأدب العربي، د. عبد الكريم اليافي، ص413.

(2) تاريخ الطبري، ص 15، أخبر أبي هريرة عن رسول الله ص، قال: خلق الله النور يوم الأربعاء، يعني بالنور: الشمس، إن شاء الله.

من عطف، لكن الأمر ليس كذلك، فما أورده التاريخ عن أهل حمص من ناحية، وطبيعة النكات السائدة اليوم من ناحية أخرى، تدل على المجاديب «نعتٌ نفسي» بقصد الانتقام والتشفي.

أما ما تخبرنا إياه الليتورجيا فمختلف تماماً، إذ من خلالها نعلم أن أهل حمص كانوا يحضرون لأعياد الربيع القديمة يوم الأربعاء.

أعياد الربيع القديمة في حمص

لا يمكن عزل ما يشاع من وسمٍ للحمصيين بالجدبة، وأن لهم يوماً في الأسبوع يحتفلون فيه بتلك الجدبة، هو يوم الأربعاء «عيد المجانين»، سواء كان ذلك بهدف التسلية أو الجد، عن تاريخ المدينة بشكل عام والأعياد التي كانت تقام بها.

هذه الأعياد هي خميس الضايع «التائه»، خميس الشعنونة، خميس المجنونة، خميس القطط، خميس النبات، خميس الأموات، خميس المشايخ ويسمى أيضاً «خميس الأسرار، وخميس البيض».

كانت احتفالات أعياد الربيع القديمة، تشمل فترة الاعتدال الربيعي، موزعة على شهري آذار ونيسان، وربما شباط وآذار، وإن كان هذا نادراً. «ويستخدم تاريخ الفصح المسيحي الأرثوذكسي كنقطة مرجعية لتحديد هذه الأعياد التي في جوهرها أعياد إسلامية».[1]

ونجد لهذه الأعياد استمراراً في الأعياد المسيحية، ثم الإسلامية فآخر «خميس من السبعة يتطابق مع خميس الآلام السابق مباشرة لعيد الفصح. ويقع أول خميس، أي قبل ذلك بتسعة وأربعين يوماً، في

(1) أعياد الربيع القديمة في حمص،ص13.

الأسبوع الذي يبدأ بـ «اثنين الراهب»[1] (أي في الخميس الذي يسبق «اثنين الراهب» في شباط وهو بداية الصوم الكبير لدى المسيحيين على التقويم الشرقي)[2]، وهو خميس المشايخ. علماً أن الأحد الذي يسبق أحد الفصح هو «أحد الشعانين»، ثم يليه خميس المشايخ، ثم الجمعة العظيمة، فسبت النور فعيد الفصح. و«كان رجال الدين الإسلامي، وبشكل خاص المتصوفون، على علاقة وثيقة بأعياد الربيع- هذه وبخاصة العيد الأخير».[3]

ويرى بعض الباحثين في تاريخ المدينة أن أعياد «الخمسانات» (كما تلفظها العامة) التايه، الشعنونة، والمجنونة، والقطط، ليس فيها مواسم، لوقوعها في أواخر الشتاء بين شباط وآذار، أما/ خميس النبات والأموات أو الحلاوات والمشايخ، فلها مواسم وطقوس للاحتفال بها».[4]

لكن الباحث الفرنسي جان إيف جيلون، يفترض أن أعياد «الخمسانات» التي كانت سائدة في حمص حتى مطلع خمسينات القرن الماضي، كانت تعبيراً عن أعياد الربيع القديمة وامتداداً لها، وهو لا يهمل الأخمسة الأربعة الأولى التايه، الشعنونة، والمجنونة، التي توقف الاحتفال بها منذ زمن بعيد.

ويقول: «نظرياً يمكن ترتيب مسار الطقوس المختلفة لأعياد الربيع القديمة بموجب النظرية العامة لمرسيليا إلياده التي تدرس الوقائع الدينية من الناحية الفينومينولوجية (الظاهراتية) والتاريخية»،[5] كالتالي: انكفاء

(1) أعياد الربيع القديمة في حمص،ص13.
(2) حمص دراية وثائقية، ص205.
(3) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص13.
(4) حمص دراسة وثائقية، ص201.
(5) المقدس والدنيوي، مرسيا إلياده، ترجمة نهاد خياطة، ص5.

نحو العماء، تطهير وتضحية، معركة مظفرة ضد قوى الظلام، سطوع قوى النور، تحديد المصائر، الابتهاج بالحياة الجديدة».[1]

يتابع جيلون ومع احتمال أن نخطئ فيما يخص الأخمسة الثلاثة الأولى، إذ لا يمكن أن نؤكد بخصوصها أي شيء مثبت، يمكن توزيع أعياد الربيع في حمص إلى: طور مظلم (الأخمسة الثلاثة الأولى التايه، الشعنونة، والمجنونة)، وطور أكثر إشراقاً أو طور صاعد (الأخمسة الأربعة التالية القطط، خميس النبات والأموات والمشايخ).

وفق تقسيم أعياد الربيع السابقة، يمكن تقسيم الأعياد المسيحية، التي يبدأ الاحتفال بها بين شهري شباط وآذار، وتمارس فيها طقوس موت الإله وإعادة بعثه. فالمسيح يمثل قوى التجديد (الجيل الجيد)، التي تتصارع مع النظام القديم الذي لابد من اندثاره (يوم المجانين)، بالتضحية بنفسه و«إقفار اللحظة التي تتلاشى فيها الحياة (المراثي) خميس الأموات.

ويعتقد الباحث جيلون «أن الفترة المناسبة التي انبعثت فيها ممارسة الشعائر القديمة... كانت على الأغلب فترة ركود نسبي على المستوى الاجتماعي- السياسي: فلم تنشط في فترة الازدهار بداية العصر الوسيط بل في نهايته. وحتى في الفترة العثمانية أيضاً وتحديداً القرن الأخير منها».[2] أي أن هذه الاحتفالات مورست على مراحل متقطعة.

* ما يهمنا من هذه الأعياد، التي قدمنا فكرة موجزة عنها، هي الأعياد الأربعة الأولى. وللأسف «فإننا سنقتصر على الفرضيات التي تتولد عن دراستها. «فحتى» النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يكن قد بقي من هذه الأيام أي احتفال شعبي. هذا إذا كان مثل هذه الاحتفالات قد وجد

(1) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص105.
(2) مصدر سابق، ص159.

فعلاً».[1] وما سيقدم من تفسيرات حولها يعتمد على «النمطية العامة لأعياد التجدد، وعلى المقارنة مع مجموعات الأعياد المماثلة التي لا تزال باقية في بعض القرى السورية كما يقول جيلون، وبه نستعين بهذه التفسيرات:

- خميس الضايع:

يسمى أيضاً خميس التايه. وبعضهم يعتبرهما يومين متمايزين[2]. ومن موعده، لا يمكن أن يكون يوم مرح، حيث ينتمي هذا اليوم إلى «**الوجه المظلم من فجر**» السنة الجديدة، ويمكن أن يترجم اسمه بـ «**Jeudi le jar**» (بالفرنسية) شرط أن نوضح أن كلمة «الضايع» تحيط، كمرادفها الفرنسي، بمجموعة من المعاني، تتضمن معنى «الحائر، فاقد الرشد، المضطرب».[3] كما أن كلمة «التائه» يمكن أن تشير إلى الضياع الجغرافي كما تشير إلى الضياع العقلي. وقد يكون خميس الضايع هذا هو أيضاً خميس القلق والبلبلة.

- خميس الشعنونة:

كلمة «شعنونة» تدل على ربة منزل مهملة وقذرة. وإذا ما توقفنا عند هذا الشرح، فإننا سنسلم بأن هذا اليوم واقع تحت رعاية كيان أنثوي غير محبب. إذ يمكن أن نقارب بين هذا الكيان من «العجوز»، ومن الغولات المعروفة جيداً في الفلكلور المتوسطي[4].

---

(1) مصدر سابق، ص15.

(2) مصدر سابق، ص14.

(3) مصدر سابق، ص137.

(4) لقد وصف جان سيرفيه بشكل جيد في التراث البربري. «عجوز يناير» (أي عجوز شهر كانون الثاني) هي غولة رهيبة تمارس أفعالها الضارة قرب حلول الانقلاب الشتوي. «... وحسب المناطق، يتأرجح موعد طقوس تغير الدورة بين =

- خميس المجنونة:

هل هذا الخميس هو «يوم المجانين»؟ ونعني بذلك اليوم الذي ينقلب فيه النظام الاجتماعي تماماً، مع احتمال اشتماله على بعض التصرفات الإباحية. فيوم المجانين من العناصر الأساسية، ويعتبر غيابه عن سيناريو تغير السنة أمراً غير طبيعي نوعاً ما. أضف إلى ذلك أن أيام المجانين أمر مثبت في تاريخ المشرق القديم،[1] وكان لها وجود من دون شك في العصر الوسيط. ولابد أنها تلاشت تدريجياً بفعل التشدّد المتزايد في المواقف الاجتماعية، وإذا ما كان ليوم المجانين وجود سابق في حمص، فمن المتوقع أن لا نجد عنه في أيامنا هذه، إلا أثراً مبهماً، على شكل تسمية فقدت معناها.[2]

= الشتاء والربيع، ولكن ضمن إطار هذه الخلخلة الظاهرية، هناك عنصر لا يتغير: سيناريو الدراما الأسطورية التي أعطت اسمها «لأيام العجوز»... تقوم امرأة عجوز بممارسة نشاط ربيعي، كأن ترعى عجلها أو عنزتها مثلاً أو تمخض اللبن من أجل استخراج الزبدة وغالباً ما تزيد في خطورة موقفها بالتهكم على الشهر الجاري لأنه ليس بارد بالقدر الكافي لمنعها من ممارسة نشاطها قائلة: «لقد نجوت منك، نجوت منك، يا كانون الثاني مع عجلي». فتُعاقب على ذلك بعاصفة هوجاء أو عاصفة ثلجية أو فيضان، وهذه الأمور غالباً ما تكون قاضية عليها»... أعياد الربيع القديمة في حمص، هامش ص138...وفي دمشق تعرف الأيام الأخيرة من شباط «بأيام العجوز» يتفق شباط مع آذار قائلاً: «آذار يا ابن عمي ثلاثة منك وأربعة مني تنخلي الشلال يغني».

(1) لا بد أن الأكيتو (عيد ربيعي في بابل) كان يعرف طور الانكفاء هذا، والذي يتوافق مع فترة سيطرة تعامات التي تتصف بانقلاب الشروط الاجتماعية(إذ يصبح العبيد أسياداً).أنظر مرسيا إلياده، أسطورة العودة الأبدية، وقد أخذنا «يوم المجانين» أو «عيد المجانين» من العصر الوسيط الأوربي مع إعطائه قيمة عامة ونجهل ما إذا كانت قد استخدمت تسمية مماثلة في الشرق. أعياد الربيع القديمة في حمص هامش. ص141.

(2) مصدر سابق، ص101.

وهذا بالفعل ما نلمسه فيما يخص موضوع بحثنا، فحمص استطاعت بفضل عيد المجانين، ويوم الأربعاء، أن تكون بمنزلة **ذاكرة دينية** يمكننا من خلالها أن نستدل على التراث الروحي الذي تزخر به هذه المنطقة، فيوم الأربعاء (يوم المجانين) ضروري في الفكر الديني القديم إذ منه يتم اندثار القديم وحلول النظام الجديد محله. وهكذا فإن **روح حمص الخالدة، تشكلت بأناة من خلال استمرارية الطقوس السامية والبابلية.**[1]

مكانة حمص الدينية

نعلم الآن، أن يوم المجانين كان موجوداً كأحد خُمسان الاحتفال بأعياد الربيع، وكان يشتمل على تصرفات الإباحية، دعت كل من رآها من التجار أو الرحالة أو المسافرين إلى اعتبارها سلوكيات شاذة، فاعتقدوا أن في هذا الشعب لوثة.

وعليه، فعيد المجانين، يجب أن يكون يوم الخميس وليس الأربعاء لأنه في يوم الأربعاء كان يتم التحضير لأعياد الخمسانات السابقة، ومنها عيد المجانين.

طبعاً، نغالي إذا قلنا إن هذه الأعياد كانت حِكراً على حمص، لكن ما يميز وجودها في حمص أن موسمها كان «موسم إشعاع إقليمياً لا ينكر» إذ كان الزوار القادمون عديدين جداً «من اسكندرون إلى صور، ومن حلب إلى عمان، وحتى من القدس ومن القاهرة»[2]. فحمص كانت كعبةً يحج إليها الناس من كل حدب وصوب.

يقول الرحالة والمؤرخ وصفي زكريا في وصف الاحتفال بخميس

---

(1) إمبراطورات سوريات، مرجع سابق، ص19.

(2) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص66.

المشايخ في حمص: يركب مشايخ الطرق الصوفية «الأكاديش، ويتظاهرون وهم عليها، بالبله والاسترخاء، وإسالة اللعاب في الأفواه ويتبعهم مريدوهم...وكان هؤلاء المشايخ قبلاً، يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف، أكل النار والزجاج، ضرب السفود والاتكاء على السيوف، والدوس بأكاديشهم على ظهور الرجال الممدين، وغير ذلك مما ينكره الدين ويمجه العقل السليم...»[1].

ويتبين من كلام **نجاة قصاب حسن**، في معرض حديثه عن خميس المشايخ الذي كان يُقام في برزة بدمشق، وهو يصف مشاهدته الشخصية لما كان يجري فيه من طقوس قائلاً: «... فيأتي الموكب كما في **حمص** تتقدمه الأعلام والرايات الصوفية وضاربو الدفوف...».[2] يتبين أن حمص كانت مرجعاً دينياً وبشكل أدق مرجع طقوسي. واعتقد أن لهذه الخمسانات علاقة بعبادة إله الشمس الحمصي، الذي عبده أهل حمص. هذه العبادة ستشرح لنا بين طيات حكايتها، لماذا اتسم موقف أهل حمص، بالتناقض فيما يخص الشأن الديني؟

قادش (المدينة المقدسة)

على بعد خمسة كيلومترات إلى الغرب من منطقة القصير جنوب غرب حمص يقع تل النبي مندو الذي يرتفع في أعلى نقطة له لحدود 30 م... هذا التل يحتضن أطلال مدينة قادش...

قادش أو المدينة المقدسة واحدة من أهم ممالك المدن التي «يرجع بناؤها إلى الشطر الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وقد عاصرت مملكة قطنا الواقعة في تل المشرفة إلى الشمال من مدينة حمص حسب ما يقول

(1) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر تموز 1934، صفحة 354.
(2) حديث دمشقي 1884-1983، نجاة قصاب حسن، ص351.

الباحث نعيم الزهراوي»[1]: هذه المدينة (المقدسة) أصبحت، بعد دخول الحثيين إلى سورية من الشمال حوالي 1500 قبل الميلاد، حاضرة دينية لهم.

سياسياً كانت هذه المدينة منطقة لتقاسم النفوذ على شمال سورية الذي كان تحت سيطرة الحثيين (وقبلهم الميتانيين) وجنوب سورية الذي كان تحت النفوذ المصري.

استراتيجياً في السهل الذي تطل عليه المدينة حصلت الحروب الشهيرة بين الحثيين والمصريين لبسط السيادة والنفوذ.

دينياً كانت قادش، عدا عن كونها مركزا دينياً للحثيين، بوابة لاحتكاك الحضارتين الحثية والمصرية ما جعل لها أثراً كبيراً في تلاقح الفكر الديني بينهما و«بخاصة تأثير عبادة الشمس المصرية عند الفرعون أخناتون في المعتقد الحثي» كما يقول الأديب الحمصي شاكر مطلق[2].

إله الشمس الحمصي

المكانة التي شغلتها حمص في الشؤون الدينية، تعززها ديانة الشمس التي حاول بسيانوس الملقب بإيلاكا بعل أحد أباطرة الأسرة الحمصية نشرها وحلت في وقت من الأوقات(220-222م) محل آلهة الأوليمب وكبيرهم جوبيتر.

كان بسيانوس، «أحد أصغر كهنة معبد بعل في حمص» ،[3] صاحب المحاولة الجريئة الثانية في التاريخ لنشر ديانة شمسية شمولية بعد الآتونية

---

(1) جذور ريف حمص، نعيم الزهراوي ج 7 ص200-352.

(2) د. شاكر مطلق ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى.

(3) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص341.

المحاولة الأولى التي قام بها الفرعون أمنحوتب الرابع (أخناتون)، الذي حكم مصر (1369- 1353 قبل الميلاد).[1] وقد أطلق الرومان على بسيانوس اسم إلهه «إيلاجابال» أو «إيلاكا بعل».

كانت جوليا دومنا «مؤسسة السلالة السورية»، التي حكمت روما نهاية القرن الثاني الميلادي، ابنة «باسيانوس» الكاهن الأعلى لمعبد الشمس في مدينة حمص، وهو سليل الكهنة- الملوك الوارثين الذين حكموا المدينة في ماضيات الأيام، ولم يبق لهم إلا السلطة الروحية الموروثة، لأن الفتح الروماني جردهم من السلطة الزمنية.[2] وقد وصفت بالجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والأدبية، إذ كان صالونها يضم كبار رجال العلم والأدب في ذلك العصر، ومنهم بابنيان الحمصي، أول المحامين الذين وجدوا وسيوجدون كما وصفه أحد أكبر شارحي القانون وجالينوس الطبيب المشهور[3] وغيرهم. هذه السيدة -معنى دومنا- «شجعت خطط زوجها القائد الروماني سبتموس سيفيروس الإفريقي للوصول إلى عرش روما»، ونجحا في ذلك.

ولدى انتقال جوليا إلى روما، اصطحبت معها أختها الكبرى جوليا ميسا جدة بسيانوس، «إيلاجابال» ابن ابنتها جوليا مماياً. نشطت الأميرات

---

(1) فراس السواح، مرجع سابق ص 93-97.

(2) إمبراطورات سوريات، مصدر سابق، ص31، لكن د. فيليب حتي يقول في تاريخ سورية أن حمص احتفظت بحكامها الوطنيين من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني... وانضمت طبقة النبلاء في حمص وكذلك تدمر ودمشق إلى طبقة النبلاء الإمبراطورية لفترة من الزمن وساهمت بالتالي في إدارة الإمبراطورية حتى قبل أن يصل اثنان من أعضائها إلى العرش الإمبراطوري كان مؤسس الأسرة الحمصية رجلا حُرّف اسمه باللاتينية فأصبح سامبسيرجرامس «يعني بالآرامية ليقوي إله الشمس» وقد جرد الإمبراطور دوميتان (81-96م) ذريته من العرش... (مرجع سابق ص340).

(3) تاريخ سورية مرجع سابق، ص379.

السوريات في الشؤون السياسية والدينية، «يدغدغ خيالهن حلم كبير بالقضاء على الفروق الدينية في الإمبراطورية الرومانية نحو نوع من التوحيد مؤسس على عقيدة الشمس الحمصية وإلهها الأوحد».

وتجلى ذلك في سيرة جوليا دومنا التي تعكس «معتقدها ذا الطابع الإنساني الشمولي»، فمن أعمالها أنها اتخذت مرضعة ومربية لابنها كركلا من الجماعات المسيحية التي كانت منبوذة من قبل المجتمع الروماني آنذاك، كما استعانت بعدد من هؤلاء المسيحيين، رغم اعتراضات الكثيرين من حولها. في ذلك الوقت كان المسيحيون يجاهرون بعدائهم وازدرائهم لكل العبادات الرومانية منها، والوافدة، وقد وجدت جوليا كل تعصب وتحجر في المعتقد، الأمر الذي صرفها عن المسيحية بعد أن أنفقت وقتاً في دراسة أفكارها وتعاليمها.[1] وهكذا كان يفعل أهل حمص المتمرسين بالشؤون الدينية مع كل دين جديد يأتي إليهم.

ويروى عن الملكة الحمصية جوليا دومنا التي حكمت روما كإمبراطورة حبها للنكات الساخرة والنوادر الناعمة.. وذات مرة طلبت من المفكر الروماني «أبنيان» العامل لديها في البلاط ويعتقد أنه سوري الأصل أن يروي لضيوفها ماحدث بينه وبين موظف الأمن عند عبوره نهر الفرات.

ويسرد المؤرخ مايلي.. أردت أن أعبر نهر الفرات فسألني موظف الأمن ماذا تحمل معك.. ولما كنت لا أحمل شيئا قلت مازحاً.. أحمل الصدق والوفاء والعدل وهذه الألفاظ في اللاتينية تنتهي بمقطع مؤنث فقال لي الموظف في استعجال جهز ثلاثة جوازات سفر للفتيات الثلاث وأهلاً بك[2].

---

(1) فراس سواح، مرجع سابق، ص98.

(2) النكتة الحمصية من جوليا دومنا إلى يومنا، تقرير نشرته وكالة سانا للأنباء، 15/ 6/ 2008.

- **طقوس العبادة:**

عبادة هذا الإله، كان يتخللها الاحتفال بالقداس أمام الصنم المجلبب بالمجوهرات وطقوس عري بإثارة الحماسة حتى الهذيان في نفوس جمهور يمثل زواج الشمس الإلهي بزوجاته من بنات البشر. وكانت الرقى والتعاويذ والموسيقى والرقص على أنغام المزامير والطبلات، والتكرار المستمر لمقاطع ذات معان سرية وحركات طقسية، يستمر إيقاعها، ويصخب ويتسارع إلى حد الهذيان، **كان كل ذلك يثير نشوة الجماهير حتى الجنون** فتنتهي عبادتها الطقسية هذه بممارسة عملية الزواج.[1]

كان إيلاجابال - الذي عرف بشدة اعتنائه بالبهارج الكهنوتية - لذلك شبهه الناس بالإله ديونيسيوس- وأمه جوليا سوايمياس، وجدته ميسا ابنة كاهن إله الشمس باسيانوس، يمارسون داخل المعبد المقدس «طقوساً سرية» كإنشاد الأغاني السورية، وتقديم الصبيان قرابين، كما شاع على ألسنة الناس في حينه، وممارسات أخرى كانت في نظر الرومان شاذّة، بقدر ما كانت مألوفة في موطن القيصر: حمص.[2]

وفي الاحتفالات الرسمية، كان إيلاجابال يقوم بكل مراسم العبادة بصفته كاهن الإله أمام كبار مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان، ما أثار استنكارهم. واستمر «إيلاجابال» القيصر في سلوكه الماجن بلا حدود، الذي أضيف إليه مجون مقربيه ورفاق حفلاته. وارتقى كل من الراقصين والممثلين وقواد العربات والحلاقين أعلى المنازل، لمجرد أنهم أثبتوا جدارتهم في حفلات البلاط الماجنة».[3] لكن سعي إيلاجابال فشل، وتخلى عنه في النهاية كل معين، حتى جدته ميساء، وفي إحدى الليالي

(1) إمبراطورات سوريات، مرجع سابق، ص32.
(2) إله الشمس الحمصي، فرانسالتهايم، ترجمة: إيرينا داود، دار المنارة، ص61.
(3) إله الشمس الحمصي، ص65.

من آذار222م استشهد في سبيل معتقداته على يد الجنود، مع أمه مماياً، وألقيت جثتهما في نهر التيبر.

مارس الناس تلك المظاهر بشكل واسع في مدينة حمص، «ويبدو أن هذا الإله كان في الوقت نفسه محل تقديس الكثيرين من خارج المدينة، لأن معبده كان مهوى أفئدة الحجاج من كل حدب وصوب، يؤمونه لتقديم فروض الاحترام للحجر الأسود الشهير،[1] الذي كان رمز الإله الأوحد».[2] وكما أثار سلوك الملك الشاذ استغراب وسخط الرومان، لابد أنه أثار استغراب كل من مرّ بحمص.

في ختام الحديث عن إله الشمس الحمصي، نذكر هذه القصة: عندما اعتلى «إيلاجابال» عرش روما، جاء من أراد إقامة نصب يكرمه وينقش عليه نعوت الإمبراطور وألقابه الحربية، على سنّة السابقين له، نهاه قائلاً:

---

(1) الحجر الأسود من بين المعبودات الوثنية حتى وبعد ظهور الأديان السامية، وهو من الحجارة النيزكية التي تخلفها الشهب وقد اعتقد الأقدمون أنها نازلة من السماء، وقد اشتهر في الشرق ثلاث من الأحجار السوداء وهم الحجر الأسود عند الأنباط: عبد بشكل حجر أسود وضع في مكة، وجد مقامه في خربة التنور جنوب شرق البحر الميت ويرجح أنه بني في القرن الأول ق.م، والحجر الأسود في مكة: حجر نيزكي موضوع في الجدار الجنوبي الشرقي للكعبة في مكة، يقبله الحجاج في موسم الحج، الحجر الأسود في حمص وهو حجر نيزكي كقدس يمثل بعل حمص إله الشمس الذي عبدوه، أصبح معبد الحجر الأسود كنيسة فيما بعد وحولت إلى جامع في العهد الإسلامي، وهو الجامع الكبير بعد ثورة حمص ضد مظالم العباسيين عام 855م (الميثولوجيا السورية-أساطير آرام، د. وديع بشور، مؤسسة الفكر للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، تشرين الثاني 1981، ص192)، يذهب البعض إلى أن معبد حجر حمص أقيم مكانه مسجد يعرف» جامع أبي لبادة وقبل المسجد كان كنيسة، ويرى البعض الآخر أن المعبد يقوم فوق قلعة حمص نفسها. و«الاسم السامي للحجر الأسود هو «لبيتيل BETYLE» ويعني بيت الإله (بيت إيل) ويعني صنماً أو نصباً من حجر يسكنه الإله ويُرمز له».

(2) دين الإنسان، مصدر سابق، ص98.

لا أحتاج إلى أن أذكر بألقاب الحرب وسفك الدماء، **يكفي أن تكتبوا بأني رجل يتقي الله**».[1] فأنى لمدينة كحمص أن توصف بالضلال كما وصفها ياقوت الحموي، أو الحمق كما وصفها ابن الجوزي؟

سمعان المتباله لأجل المسيح[2]

لم تدخل النصرانية إلى حمص، وتغلب على الوثنية التي كانت عريقة بين أهلها، إلا في القرن الثالث الميلادي وما بعده، على يد القديس (سيلوانس) الذي عد أول أساقفها.[3]

وهَهُنا قصة تبرهن على مكانة حمص الدينية، تثبت ما افترضناه سابقاً من أن «الحُمق» أو «التباله»، كان طريقة صوفية يستخدمها الزهاد والنساكون ليتقربوا إلى الله ولكن هذه المرة في الديانة المسيحية، وليس الوثنية.

والراهب المتنسك سمعان الذي نحن بصدده، كان منهم. فقد اتبع هذا الراهب طريقة غريبة في العبادة اعتمدت على التظاهر بالجنون والبلاهة، وكانت المدينة التي اختارها لذلك هي مدينة حمص. أما لماذا فعل ذلك؟ فإن سيرة حياته تقدم لنا الإجابة، لاسيما أن لهذا الراهب فلسفة خاصة «بالتباله».

ولد سمعان في مدينة الرها، من أعمال سوريا الشمالية، في أوائل القرن السادس للمسيح، وكان أبواه من ذوي المكانة العالية والغنى الوافر. وقد عُنيا بتثقيف ولدهما على الأخلاق العالية وعلماه العلوم العصرية، «فأضحى من الشباب الذين يشار إليهم بالبنان. ولما بدأ يستقل بحياته،

---

(1) فراس سواح، مرجع سابق، ص99.

(2) السنكسار: سير القديسين - المطران ميخائيل عساف-ج-2 يوم 21تموز.

(3) جولة أثرية، مرجع سابق 319.

ذهب مع قافلة من أبناء وطنه، يريد زيارة الأماكن المقدسة، وحضور عيد رفع الصليب في أورشليم. ورافقه في رحلته صديق له يدعى يوحنا. ثم قصدا البراري الأردنية، حيث كانت الحياة الرهبانية زاهرة فيها، وزارا أديرة عديدة، ولما عزما على خدمة الله طرقا باب دير القديس جراسمس قرب الأردن، وخلال إقامتهما فيه كانا مثالاً حياً للطاعة، والتواضع، والتجرد، وإماتة الحواس، وكثرة الصيام والمواظبة على التأمل والصلاة. بعد ذلك تركا الدير برضا مرشدهما ورئيسهما، وعاشا عيشة النساك المتوحدين في جوار البحر الميت، وكانا يقتاتان على الحشائش التي تنبت في تلك الأراضي الكبريتية، ويقضيان الأيام ومعظم الليالي يتعبدان، وظلا على هذه الحال طيلة تسع وعشرين سنة، إلى أن «قضت الحكمة الإلهية بأن يفترقا»، فظل يوحنا في القفار متعبداً إلى أن مات. وعاد سمعان إلى «ضوضاء العالم وجلبة المدن الصاخبة»، فاختار مدينة حمص «الجميلة الكبيرة، الكثيرة الخيرات والشرور والبركات معاً» ليقيم فيها.

فلسفة سمعان

حماية للإرث الذي حصله، ولأنه عرف مسبقاً كيف سيتلقى الناس إنساناً اكتمل في «القداسة والعلوم الروحية فوق ما كان عليه من الثقافة العالمية»، خاف سمعان على ضياع ما كان قد اكتسبه بشق النفس في حياة القفر من فضيلة التواضع، فأراد ألا يذهب ذلك الكنز الروحي هباءً منثوراً أمام إكرام الناس له وإعجابهم بعبادته وصيامه وسعة معارفه. **فتظاهر بالبله**، وأخذ يأتي أموراً غريبة مضحكة جعلت الناس تشفق عليه، وترثي لضعف عقله، وتنسب ما تراه فيه من طرق العبادة إلى نقص في مداركه. فأخذ يطوف في الأزقة ويرتاد الشوارع، وهو يركض ويرقص ويصيح ويقهقه،

حتى ثبت لدى الجميع أن هذا الراهب شارد العقل مأخوذ بخيالات غريبة، لكنه كان عندما يختلي بنفسه يقضي الليالي ساجداً متعبداً زاهداً، «فشرفه الله بصنع العجائب والنبوءة» لدرجة أنه تنبأ بزلزال سنة 550م... وتنبأ أيضاً بالطاعون الذي فتك بمدينة حمص.

اعتاد الناس حركات هذا «الأبله»، فكانوا يعتقدون أن «ما يأتيه من معجزات إنما كانت تحدث بطريق الاتفاق، فالله كان يمنح المؤمنين بعض النعم بواسطة ذلك الأبله، وجنون سمعان المستعذب الخفيف الظل كان يشفع فيه لدى العلي، ويجعله صاحب كرامة لديه».

«عاش هذا البار رسولاً كريماً محباً خدوماً، **معدوداً بين الناس أبله، وذلك كله لأجل المسيح، ليكسر عنفوان الكبرياء** ويبيد في قلبه كل عاطفة تسعى وراء الشهرة والمجد الباطل، فما يمنحه الناس من المجد لهو حقير ذليل زائل مثلهم، أما المجد الذي يأتي من عند الله، فهو المجد الحقيقي»

وهكذا عُرف سمعان في مدينة حمص «**بالرجل الأبله**»، ولم يكن أحد عالماً بأمره سوى يوحنا شماس كنيسة حمص، الذي استحلفه ألا يبوح بشيء لأحد ما دام هو على قيد الحياة. وبعد وفاة هذا الراهب أعلن يوحنا حقيقة تلك القداسة المتسترة تحت برقع البله والجنون، فأتى الناس من كل حدب وصوب إلى كوخه للتبرك من رفات ذلك «القديس المجيد».

ثم «توسع انتشار هذه العبادة إلى أوربا. وفي روسيا وجد مجموعة من الناسكين أطلقوا على أنفسهم اسم **المجانين من أجل المسيح**، وبقيت لما قبل الثورة الروسية بقليل، ألم يكن الحمصيون أول من اقتدى بذلك الراهب! إذ لا بد أنهم كانوا أول من مارس تلك الطريقة في العبادة، ثم نشروها في العالم».[1]

---

(1) محاضرة بعنوان حمص، ويوم الأربعاء، ألقاها نهاد سمعان، في المركز الثقافي بحمص تاريخ 6/ 2/ 2002.

حمص «كعبة» اللهو

تميزت حمص عبر تاريخها بالكثير من التناقض، ليس فقط على صعيد المعتقد الذي دانوا به، إنما على صعيد الشخصيات التي عاشت بها فقد سكنها النساك والمتصوفة، ومنها خرج حقوقيون كبار أمثال بابنيان. ويقول ابن العبري في تاريخها: «كان أبقراط (أبو الطب) يسكن مدينة حمص ويتردّد إلى مدينة دمشق، ويأوي إلى بستان كان له فيها ومكانه معروف إلى يومنا هذا في واد هناك يسمى النيرب. وكان رجلاً إلهياً يداوي المرضى مجاناً. وقد أحسن جالينوس في وصفه حيث قال: إن جالينوس أدبه الدرس وأبقراط أدبته الطبيعة. وقال أيضاً: إن أبقراط انغمس في الطبيعة وسرى معها حتى انتهى إلى أعماقها، وأخبر عما شاهد هناك».[1] وفيها عاش ديك الجن الحمصي، أستاذ أبو تمام الشاعر المعروف...إلخ. فأي سحر كان لطبيعة حمص كي تكون منهل العلم لرائد الطب العالمي «أبقراط»؟ كل ذلك يبقى ضمن إطار الممكن. أما أن تكون حمص كعبة للهو والمجون، فهذا أمر جديد يحتاج إلى التدقيق فيه، لاسيما أن لهذا الأمر أساساً يدعمه الماضي القريب جداً، فمن المشاهد المألوفة في مدينة حمص منذ زمن بعيد، وحتى أيامنا هذه «مشهد السكارى العائدين من متنزه الميماس بعد منتصف الليل، وهم يغنون ويطربون حتى دخولهم المدينة».[2] فالخمرة ساهمت بمساعدة طبيعة حمص الخلابة، في ذلك الوقت طبعاً، على تليين طباع أهل المدينة وجعلتهم «أخف الناس أرواحاً وأطبعهم نوادر وأحملهم للمزاح «مهما كان غليظاً. وهذا ما تخبرنا به كتب التاريخ والأدب. ففي الفصل الثاني من كتاب المستطرف من كل فن

---

(1) تاريخ مختصر الدول، بابن العبري، المتوفى سنة 685هـ، ص50.

(2) ديوان ديك الجن الحمصي، جمع وتحقيق مظهر الحجي، وزارة الثقافة، ص8.

مستظرف يصف الأبشيهي الأنهار والينابيع، يقول: «إن نهر العاصي يقوم بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف، وفيه يقول بعضهم:

مدينة **حمص كعبة القصف**[1] أصبحت
يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي
بـهـا روضـــة مـــن حسنها سندسية
تعلق في أكناف أذيالها العاصي»[2]

ويروي ياقوت الحموي في معجمه حادثة عن أبي نواس أشهر ماجني العصر العباسي، أنه لما انصرف من مصر اجتاز بحمص «فرأى كثرة خماريها وشهرة الشراب بها، **وترك كتمان الشاربين** لها شربها فأعجبه ذلك فأقام بها مدة مغتبقاً ومصطبحاً، وكان بها خمار يهودي يقال له لاوى، فقال لأبي نواس: كيف رأيت مدينتنا هذه وحالنا فيها، فقال له: حدثنا جماعة من رواتنا أن هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لبني إسرائيل، فقال له الخمار: أيما أفضل عندك هذه الأرض أم قطربل[3]، فقال: **لولا صفاء شراب قطربل وركوبها كاهل دجلة ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها**.[4]

ويصف الطبيب ميخائيل مشاقة الدمشقي (1888م)، الذي رافق إبراهيم باشا في فتوحاته في البلاد السورية حال مدينة حمص في تلك

---

(1) القصف: بحسب لسان العرب لابن منظور، هو اللهو واللعب، وهو الجلبة والإعلان باللهو.

(2) الأبشيهي(790-850 هـ)، المستطرف من كل فن مستظرف، دار إحياء التراث، ج2، ص157.

(3) وقطربل كما يعرفها ياقوت: «كلمة أعجمية وهي اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر وما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها».

(4) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج4، ص422.

الفترة فيقول: «إن أهالي المدينة نحو عشرين ألف نسمة ثلثهم نصارى والباقي من المسلمين، **ولم أرَ فيها نصرانياً غير مولع بالسكر**».[1]

مجربو الخمر يعرفون تماماً، أن حالة الانتشاء الروحي التي ترافق تناول الخمر، تجعل شاربها يقوم بحركات غير مألوفة، ويتكلم بطريقة لا ترابط فيها، فكيف سيكون منظر مدينة فيها سبعة آلاف «سكير» استناداً لإحصاء الدمشقي.

ما دفعنا لإثارة هذه النقطة، هو أن تصرفات «السكران» قريبة من تصرفات «المجذوب الصوفي». الغارق في نشوة روحية خلال انعتاقه عن العالم المادي، بعد أن يحتسي «الخمرة الصوفية».

فالخمرة، وما ترمز إليه من نشوة وتحليق روحي - بدلالة اسمها «مشروبات روحية»، كانت عادة مرافقة للعبادات الوثنية، أي كان «المؤمنون» يستعينون بها لتعميق حالة النشوة، ثم أصبحت رمزاً للتوحد مع الآخر في طقس «أكل جسد الإله ودمه» التي يرمز لها بـ(الخبز والخمر) أو ما يسمى في المسيحية بطقس «المناولة».

وفيما بعد، ولاسيما في الإسلام، تم فصل الخمرة بشكل تدريجي عن كونها عنصراً مشاركاً في طقس العبادة، وتجلى ذلك في الآية (43) من سورة النساء «**ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**». وفي هذه الآية تأكيد على إلغاء حالة «الهذيان والنشوة» بالاستعانة بالمشروبات أو المخدرات التي رافقت العبادات القديمة، ولكن هذه النشوة وجدت لها طريقاً جديداً من خلال التصوف المسيحي، ومن ثم الإسلامي. وهكذا انفصلت الخمرة عن الطقس العبادي، وأصبح كل منهما يحقق النشوة والتحليق الروحي والانعتاق عن العالم المحيط بطريقته الخاصة.

---

(1) تاريخ حمص لمنير أسعد، ص386.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد انتشر في حمص سابقاً الكثير من المغارات التي يلتقي فيها الحشاشون، ويذكر عجائز حمص ما كان يجري في هذه المغارات من تبادل الطُرف والنوادر لإثارة الضحك الذي يزيد تدخين «الحشيشة»من شدته. وباعتقادي ربما كان من أحد عوامل إطلاق صفة «الحُمق» وبشكل أدق «الجدبة» على أهل حمص كثرة انتشار الخمر وتدخين الحشيشة، ما كان له دور مهم في تحول النكتة من سلاح لصراع العصبيات العربية إلى طبيعتها الهزلية - التسلوية على يد هؤلاء السكرجية، والحشاشين.

مدخل إلى عالم الضحك

«طوبى لأصحاب النكتة والظرف والروح المرحة فإن لهم ملكوت الصالونات».

من «المِلح» الطريفة التي رواها البعض زمن إبراهيم باشا، التي تبرز نباهة أحد أبناء حمص، أنه لما أراد بناء الثكنة العسكرية (هدمت في أربعينيات القرن الماضي)، اشترط على الملتزمين أن يتكفلوا بثباتها على عواصف الدهر ألف سنة، ولم يجسر على ذلك إلا رجل واحد اسمه بطرس خزام، فلامه أصدقاؤه على هذه المغامرة ضحك بطرس منهم قائلاً: إن وجدني الباشا أو وجد نفسه بعد ألف سنة على قيد الحياة، فليفعل بي ما يشاء.[1]

لم تعمل نزاعات العصبيات العربية على إلحاق الأذية الجسدية بالخصم بل عملت على إلحاق الأذية «المعنوية» به، ولنا في قصص الهجائيين العرب خير مثال على ذلك، ألم ينتحر الراعي النميري لهجاء جرير له. وعليه **فالنكتة الحمصية التي ترعرعت في كنف ما يمكن تسميته**

(1) تاريخ حمص، مصدر سابق، ص386، 376.

بالهجاء القصصي، ليست إلا سلاحاً نفسياً حديثاً موجهاً للخصم، ميدانها «الذات» البشرية.

قالوا: «إن نزول ماجن ببلدة أجدى على الصحة العامة من عشرين حملاً من الأدوية».[1] **كان الإنسان البدائي يفكر بغريزته ويطور عقله، أما اليوم فهو يفكر بعقله لإرواء غريزته.**

فالقرن الحالي، يؤذن «بعصر من الكآبة» تماماً كما كان القرن العشرين عصر «التوتر والقلق». «وتبين المعطيات الدولية أن الاكتئاب سوف يكون على ما يبدو وباء عصرياً، ينتشر جنباً إلى جنب في كل أنحاء العالم مع انتشار أساليب الحياة الحديثة، وباعثاً على الشلل والغم والحسرة، وفقدان الأمل».[2] وعليه يبدو أن الضحك سيوضع في متاحف التاريخ في مرحلة ليست بعيدة. إذ أن معدل الكآبة يزداد طرداً مع «عصرنة» الحياة.

يقول أحمد أمين: «لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في الصيدليات بالضحك، لأن الضحكة علاج الطبيعة والأسبرين وما إليه علاج الإنسان. والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة، فالضحك بلسم الهموم ومرهم الأحزان».[3]

فَهِمَ الحمصي بمرونة شخصيته، وشمولية طبعه، معنى الضحك، فسخّر النكتة -أفضل طرق الضحك- لخدمته، والحمصي لم يقتصر على إطلاق النكات على نفسه، وإنما يحاول أن ينسب العديد من النكات الطريفة إليه.

---

(1) موسوعة الأدب الضاحك، حسين مروّة، رياض الريس للكتب والنشر، ج1ص20.
(2) الذكاء العاطفي، دانييل جولمان، ترجمة ليلى الجبالي، ص331، سلسلة عالم المعرفة.
(3) مصدر سابق، ص19.

في منشأ الضحك

«قل لي مما تضحك أقل لك من أنت»

مارسيل بانيول

نستقبل الحياة بصرخة، وكأننا نعرف ما ينتظرنا، إنها «صدمة الولادة»[1]. وخروجنا من جو الأمان، والهدوء والاطمئنان، إلى حياة الضجيج والتلوث، والبحث عن «الفردوس المفقود».

منذ اللحظة الأولى لولادة الإنسان، يصرخ خشية العزلة والانفصال بعد حياة التوحد مع أمه، لذلك يستخدم العديد من **الأسلحة** في معركة «الصراع من أجل البقاء» على الصعيد النفسي أهمها «البكاء، الضحك، الابتسام» لضعف مَلَكَاتِهِ التعبيرية الأخرى، وكأنه يوصل رسالة لأقرانه والمحيطين به تقول «لا تتركوني أنا متفاعل معكم»، أو «لست متفاعلاً معكم».

ولمعرفة هذه الأسلحة، لا بد في البداية من إعطاء لمحة عامة عنها، وتفكيك عناصرها وإظهار التداخل فيما بينها.

نعرف أن حديثي الولادة، يصرخون، لكنهم لا يبكون فقد «أظهرت دراسات شملت 1250 وليداً أن 13% منهم قادرون على البكاء خلال الأيام الخمسة الأولى من الولادة، والغالبية بعد ثلاثة أسابيع، وبعضهم لم يبكِ

---

(1) قال بهذا المصطلح المحلل النفسي أوتو رانك (1884-1933)، من رواد مدرسة التحليل النفسي كان من المنشقين عن فرويد في حياته معتبراً أن العُصاب بكل أشكاله المتنوعة جداً، ليس سوى تكرار (إعادة إنتاج) لصدمة الولادة (انفصال الطفل عن أمه التي هي موضوع التثبيت البدئي الذي يؤلف الحادث البيوسيكولوجي للاشعورنا) ومفعولاتها. عن كتاب مدارس التحليل النفسي، ترجمة وجيه أسعد، إصدارات وزارة الثقافة.

إلا بعد الولادة بأربعة أو خمسة أشهر، إن الصراخ على ما يبدو هو رد فعل سابق الظهور على البكاء».[1]

فمن الناحية النفسية، يرى الباحث الفرنسي ديزموند موريس، أن «الرضيع يسعى إلى إسالة الدموع على خديه ليثير لدى أمه رغبة لا تقاوم في تجفيف دموعه ومسح خديه، ومن شأن هذا التفاعل أن يجعل الأم قريبة منه، وعلى تماس وثيق به»، أما بالنسبة إلى الكبار، فإن البكاء يفيد بدموعه الغزيرة في كونه وسيلة لإفراغ العناصر الكيميائية التي تسبب الانفعال الشديد، كي يعيد التوازن الكيميائي إلى الجسم إلى حالته المعتادة».[2]

ويبدو أن فعل الضحك تطور من فعل البكاء، إذ يبدأ الطفل بالضحك عندما «يستطيع تمييز أمه»،[3] وذلك بين الشهرين الرابع والخامس، وبالتالي يصبح الضحك لغة تجمع الأم بطفلها، ويغدو رسالة اطمئنان من قبل الطفل، ورضا عما يجري حوله.

ثم يصبح الضحك، مع صنوه البكاء، لغة التفاعل الاجتماعي، لأن وسائل التعبير الكلامية والذهنية لم تكتمل بعد، فما زالت الأمور خاضعة «لمبدأ اللذة».[4] ومن المؤشرات المهمة للتعبير عن هذا المبدأ

---

(1) ديزموند موريس، الطفل الرضيع، ترجمة محمد دنيا، دار الإرشاد بحمص.

(2) المصدر السابق، ص62.

(3) ديزموند موريس، القرد العاري، ترجمة ميشيل أزرق، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص99.

(4) يقول فرويد: (من المسلم به في نظريات التحليل النفسي أن سير العمليات النفسية ينتظم انتظاماً آلياً وفق «مبدأ اللذة»، ونحن نذهب في عبارة أخرى، إلى أن ما تبدأ منه أية عملية نفسية، مهما اختلفت الظروف، إنما هي حال من التوتر الكريه المؤلم، ومن ثم تتخذ لنفسها تلك العملية سبيلاً يؤدي آخر الأمر إلى نقص هذا التوتر والتخفيف منه، أي إلى تجنب «عدم اللذة» والحصول على «اللذة») (ما فوق مبدأ اللذة، سيجموند فرويد، دار المعارف بمصر، ص 23).

هو **الضحك**، و«عدم اللذة» ومن المؤشرات المهمة للتعبير عنه **البكاء**، ويكون **الابتسام** تعبيراً عن «مبدأ الواقع»[1]. وكون التعبيرات الفيزيولوجية لانطلاق الضحك والبكاء متداخلة في الابتسامة، يصعب على الإنسان أثناء الصراع بين مبدأي اللذة والألم تحديد الاتجاه الذي يجب أن تسلكه لأن مبدأ الواقع (وتعبيره الابتسام) يفرض سلوكية معينة، أو «يؤجل إشباع اللذة» وتجنّب عدم اللذة (الألم).

لذلك، نحن نبادر في المواقف الاجتماعية الجديدة ضمن «مبدأ الواقع» بابتسامة، فلدى تعرفنا على شخص للمرة الأولى، نبادره بابتسامة، وشخص لا نحبه مفروض علينا السلام عليه، نرمي له ابتسامة كتحية غامضة المعاني. فذلك إذاً تعبير عن مبدأ الواقع، لأن الواقع تكتنفه ظروف مجتمعية وقيود أخلاقية مطلوب منا أن نراعيها. «فإن حيينا شخصاً بابتسامة، فإنه يعلم أننا مترددون نحوه، ولكن إن حييناه بضحكة، فله الحق عندئذ أن يشك في سلوكنا تجاهه».[2] فـ«البسمة دهليز الصلات الإنسانية».[3] وكما أن الواقع متلوّن، كذلك تلونت الابتسامة بألوانه، فهناك الابتسامة الصفراء: الخالية من المعنى، وابتسامة المسايرة: تشعر الآخر بأنك مطمئن له مع أن موقفك قد يكون العكس، ابتسامة الفرح، ابتسامة الألم، ابتسامة الإغراء: يستخدمها رجل أو امرأة طلباً لعلاقة عاطفية ما.

من جانب آخر، يتداخل الضحك بالبكاء في بعض المواقف، على حد

---

(1) مبدأ الواقع قال به فرويد، وهو ميل الجهاز النفسي إلى تقيد الإشباع المباشر للغرائز البدائية، ولكنه «يهدف للحصول على اللذة أخر الأمر، غير أنه يدفع بالمرء إلى تأجيل الإشباع، وإلى التخلي عن كثير من الأمور التي تتيح ذلك أو تؤدي إليه، بل ويدفع به إلى تقبل عدم اللذة قبولاً مؤقتاً خلال السير في ذلك الطريق الملتوي الطويل الذي ينتهي به إلى الظفر باللذة» (ما فوق مبدأ اللذة،مصدر سابق، ص 28)

(2) ديزموند موريس، القرد العاري، ترجمة ميشيل أزرق، ص104.

(3) د. عادل العوا، أخلاق التهكم، دار الحصاد، ص11.

قول المثل «من وهج القفص غنى ورقص» أو «شر البلية ما يضحك» وقد يضحك الإنسان حتى تسيل دموعه، أليس «ذروة البكاء والضحك دمعة».

ولكن، ما علاقة ذلك كله بالنكتة؟

يقول بوعلي ياسين: «عندما يسخر شعبٌ ما من شعب آخر أو يتهكم عليه، فهو يفعل ذلك ليس بالضرورة لعداوة بينهما، ولا بالضرورة حتى لتنافسهما على مصلحة ما، بل على الأرجح تأكيداً للذات وإثباتاً للوجود. هناك إذاً ثلاثة مستويات من دواعي الضحك على الجماعات الأخرى: الداعي الأول هو العداوة، والثاني هو التنافس، الداعي الثالث والأعم موجود في الذات (الـ «نحن») أكثر مما هو موجود في الغير...».[1] ويرى برغسون أن للضحك عموماً مهمة اجتماعية تقوم على القصاص والتقويم، فهو **نوع من التأديب**، لأننا حين نضحك من المقصر أو الشاذ أو الغبي، إنما نؤذيه بصورة غير مباشرة...[2]، ونحذره من أنه إذا كرر سلوكه فإنه سيجلب له سخرية الآخرين.

نعرف أن وسيلة التعبير للتفاعل مع النكتة، كما هو شائع،[3] هو الضحك، فإذا لم يرد المتلقي على رسالة النكتة بالضحك فليس هناك نكتة؟. إذاً فمفهوم النكتة يختلف بين مجتمع وآخر، تبعاً لمبدأ الواقع لديه من جهة ومستوى ثقافته وانفتاحه على الآخر بعاداته وتقاليده من جهة أخرى ليستطيع التفاعل معها، أو بمعنى آخر حتى يستطيع قراءة النكتة من حيث الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أوجدتها، فما يعتبره شخص نكتة، يمكن أن يعتبره آخر ثرثرة.

فالنكتة، هي بنت البيئة التي أوجدتها. وبالتالي تختلف طبيعة النكتة،

---

(1) بوعلي ياسين، بيان الحد بين الهزل والجد، ص211.

(2) أدبنا الضاحك، عبد الغني العطري، ص15-16-18.

(3) سنثبت لاحقاً أن الامتعاض والحزن هو أيضاً وسيلة تعبير عن التفاعل مع النكتة.

وآلية تلقيها، بين مجتمع وآخر، وبيئة وأخرى، وحتى من حي لآخر، ومن شخص وآخر.

وكون النكتة متغيرة ومتبدلة، فهذا يخضع لمبدأ اللذة والألم الذي تحققه النكتة في ضوء معطيات مبدأ الواقع، فالنكتة ذات الإيحاءات الجنسية، أو الجنسية الخالصة، بالرغم من أنها النكتة الأكثر تداولاً، لأنها إحدى حالات التصريف للكبت الجنسي، نجد أن هناك مجتمعات وحتى أشخاصاً يرفضون حتى الاستماع إليها، وبالمحصلة، هي لا تُقال إلا أمام الأصدقاء المقربين. والتفاعل مع النكتة، أحد المؤشرات المهمة لرصد المزاج العام السائد، فعلى صعيد **النكتة السياسية**، التي نعرف من خلالها تقبل الناس للأوضاع السياسية، نلاحظ البعض يُلقي النكات على إحدى الشخصيات السياسية غير «المؤذية» وفق مبدأ اللذة، أو أحد الوزراء أو حتى رئيس البلد.

وكلما زادت أهمية الشخصية التي «ترمى» عليها النكتة استطعنا التعرف على مدى رضا الشارع عنها من خلال تحليل النكتة. مثلاً: من النكات التي ظهرت بعد إقالة إحدى الحكومات العربية، هذه النكتة الذكية اللماحة التي نتعرف من خلالها على مستوى أداء هذه الحكومة، تقول النكتة: «أنه بعد أن تحقق لرئيس وزراء تلك الحكومة كل ما يحتاج إليه من ثروة ومال وسلطة، بدأ يعتريه شعور أنه سيصبح نبياً، وفيما هو سائر يفكر بهذا الأمر، شعر بحاجة ماسة للتبول، فقصد إحدى الزوايا وبينما هو يتبول، بادره رجل بقوله: اقرأ، فظن أن النبوة في طريقها إليه، أجابه: لست بقارئ، فقال له: اقرأ، أجابه: لست بقارئ، قال له الرجل الذي أصبح خلفه بعد أن ضربه على قفاه: اقرأ لا تبُل على الحائط يا حمار».

وحال النكتة السياسية التي تمس نظاماً سياسياً دكتاتورياً أنها تُلقى وتسمع، ويتم التفاعل معها تبعاً للوسط العام الذي ترمى فيه، فيمكن أن

تسفر عن ضحك يصل حد الهيستيريا إذا ألقيت في جو يسوده الاطمئنان (وسط الأهل مثلاً)، وينطوي على ابتسام إذا كان شعور الخوف عدم الارتياح هو المسيطر، وفي حال لم يرتح الشخص للجو العام الذي يحيط بالنكتة، يتظاهر باللامبالاة أوعدم فهم النكتة... ومهمٌ أخيراً أن نميز بين الضحكة الصفراء أو السوداء، التي دافعها الانتقام، والضحكة العادية أو البيضاء في الهدف التربوي للنكتة».أو كما يقول «مارسيل بانيول»: «التمييز بين الضحك الإيجابي الحقيقي المنعش والضحك السلبي بهدف الاحتقار أو الازدراء، أو الانتقام أو التشفي».[1]

ويمكننا القول، إننا عندما نضحك على النكات السياسية أو الجنسية أو الاجتماعية، فإننا نضحك على عادتنا وتقاليدنا وخصوصاً البالية منها، أو نضحك على ما فرض علينا من أفكار وسلوك ومعتقدات سياسية ودينية، بالرغم من أننا نخشى لوم الآخرين لنا، وسخريتهم منا عندما نطير «خارج السرب»، ويُفهم قول أفلاطون من «أننا نضحك من تعاسة الآخرين» ضمن هذا الإطار، في حين إننا نضحك من تعاستنا نتيجة ما فرض علينا. وعليه فالضحك يتيح لنا فرصة لنتصالح مع أنفسنا ونكون «نحن»، لذلك نستخدم الأحمق وسيلة نتقد من خلالها تلك «التابوهات/ المحرمات». فالأحمق لا يلومه أحد، وحتى القانون الحديث لا يحاسبه على تصرفاته. ففي الأمس نعت الحمصي بالأحمق لأسباب سياسية ودينية، واليوم بقي الأحمق الحمصي رمزياً وسيلة لتمرير الكثير مما نخشى أن نقوله بشكل مباشر، ويبدو أنه سيستمر على هذه الحال حتى يدخل في النهاية- بشيء من الشطحات الحمصية- في تركيبة اللاوعي المحلية لأهل المنطقة والدول المحيطة.

---

(1) النكتة الصهيونية،محمد أبو خضور، ص20.

حول النكتة

يعرف بوعلي ياسين النكتة بأنها: «حديث بين طرفين متنافرين، ينتقل فجأة من الطرف المألوف أو الاعتيادي إلى طرف استثنائي مجهول غير متوقع، فيحُدث لدى المتلقي وعياً مضحكاً بالمفارقة من خلال المتعة التعويضية التي تمنحها له».[1] ويضيف: «النكتة تقدم متعة تعويضية بما يناسب المتلقي».[2] ومن الضروري التفريق بين عدوانية النكتة وتربويتها فهي بخصوص الأفراد، تربوية أكثر مما هي عدوانية، وهي بالنسبة للجماعات، عدوانية لا تربوية على الأغلب.[3] وكان كارل ماركس يشجع النقد الاجتماعي الساخر، ويقول «يعالج الإنسان نواقصه عندما يسخر منها».[4] أما برغسون فيؤكد على «عنصر المفارقة» للنكتة ويعتبر أن النكتة «عدوانية في جوهرها».

ويرى فرويد، الذي يركز على «عنصر اللذة (المتعة) في النكتة»: «أن في تقنيات النكتة بحد ذاتها منابع للذة، تنحدر من لذة اللعب بالألفاظ والأفكار».[5]

لذلك، ينبغي أن ينطوي موضوع النكتة على كثير من الأهمية بالنسبة للمتحدث والمستمع، لأن النكتة تشكل بالأصل هروباً من مواجهة الواقع (أو إنكار الواقع بتعبير فرويد). ومن ناحية أخرى فهي تهدئ التوترات الانفعالية، القائمة بإتاحتها إفراغاً لفظياً؛ يحقق التنفيس وإشباع المطالب

---

(1) بيان الحد بين الهزل والجد، ص51.

(2) سابق،ص54.

(3) مصدر سابق، ص164.

(4) الفكاهة البلغارية داميانبارنيا كوف ترجمة حسين راجي، منشورات دار الثقافة بدمشق 1982 ص8.

(5) سابق، ص46.

اللاشعورية، (وهنا بتعبير فرويد يمكن أن تنطلق من عنصر عدواني)».[1]

وعليه، تشكل **النكتة** في جوهرها هروباً من الواقع وتحقيقاً لمطالب لا شعورية تفرّغ لفظياً من خلال لذة اللعب بالألفاظ والأفكار، تعبيراً عن دوافع عدوانية في جوهرها، تتيح لها النكتة صماماً للتنفيس والانتقام بغية إحراز متعة تعويضية تناسب المتلقي.

وإذا حاولنا تفكيك النكتة إلى عناصرها، نلاحظ أنها تتألف من ثلاثة عناصر:

مبدع النكتة «الرامي»: يؤلفها لتحقيق غاية من ورائها. الشخصية الثانية «المستهدف»: وتدور حولها النكتة. وهذه الشخصية يمكن أن تتجسد في أشخاص وهميين، كشخصية جحا في الأدب العربي، أو من الواقع كشخصية الأجدب الحمصي، أو من الواقع ولكن يُرَمز لها، مثل شخصية الأحمق «إيفان» للدلالة على أهالي غابروفو المستهدفين بالنكات في بلغاريا... أو تتجسد في مفاهيم مثلاً: للاشتراكية خمس علامات تدل عليها، «لا أحد يعمل، إنما الخطة تتحقق». «الخطة تتحقق، لكن لا شيء في السوق»، «لاشيء في السوق، لكن البيوت تتموّن»، «البيوت مموّنة لكن الناس غير مبسوطة»، «الناس غير مبسوطة لكن الكل يقول نعم».[2]

الشخصية الثالثة «الهدف»: أو متلقي النكتة الذي يريد (الرامي) أن يؤثر في وعيه، ليقدم له شيئاً جديداً أو يدعم ما عنده من قناعات، أو ربما ليزعزع فيه قيمة دون أن يقدم قيماً جديدة. فالشخصية الثالثة مستهدفة هي الأخرى لكن بصورة غير مباشرة. كما يقول بوعلي ياسين.

استطاع الحمصي أن يكون كل ذلك. فميزة أهل حمص أنهم وفي كثير

---

(1) النكتة الصهيونية، محمد أبو خضور، ص44.

(2) بو علي ياسين، مصدر سابق، ص154.

من الأوقات هم الرماة: وبسرعة بديهة فائقة، لنتذكر أحداث كوسوفو، عندما خرج أهل حمص بنكتة تقول: «إن شركة ألبان حمص تضامنت مع ألبان كوسوفو». ونكتة ظهرت في أثناء التوتر الذي ساد العلاقات السورية التركية أواخر التسعينيات تقول: «أعلن محافظ حمص مهدداً تركيا، بأن أي اعتداء على سوريا هو اعتداء على حمص». ونكتة في أثناء حملة الفساد الأخيرة تقول، إن موظفاً دخل مكتب أحد المتنفذين، وقال له: أنت حمار، فجن جنون المسؤول، وأبى إلا أن يسجنه خمس سنوات، وبعد أن استشار عدداً كبيراً من المحامين وجد أن السب والتشهير حكمها بين 3-6 أشهر، وعندما يئس أتاه محامٍ حمصي وقال له: أنا من سيسجنه خمس سنوات، ولكن أعد عليَّ ما قاله لك، أجاب: قال لي إني حمار. وفي اليوم الثاني سمع المسؤول: أن الموظف حكم عليه خمس سنوات وستة أشهر، وعندما حضر المحامي الحمصي، قال له المسؤول فرحاً: كيف فعلت ذلك، أجاب بسيطة يا سيدنا، ست أشهر سب وتشهير، وخمس سنوات كشف أسرار دولة. وبذلك يكونون أيضاً المستهدفين من النكتة أي العنصر الثاني.

بالإضافة إلى أن الحمصي وعى صراع العصبيات الدينية والسياسية، وحاول استخدام نفس أسلحة خصومه، وبالتالي أصبح الحماصنة يتندرون على أنفسهم لإغاظة خصومهم من جهة، وإثبات عكس ما يدعون تماماً كما تغيظ الطفل المشاكس عندما تقلد حركاته. ونادراً ما نسمع مجلساً يتبادل النكت، إلا بحضور حمصي.

من هو الرامي أو مبدع النكتة أو صانع النكتة:

بالرغم من أن الرأي السائد يقول: «إن صانع النكتة مجهول في كثير من الأحيان»، إلا أنه في أغلب الأوقات هو المثقف الشعبي المهتم

بالشأن العام، فالنكتة هي بنت محيطها، تفرزها ظروف سياسية، اقتصادية، اجتماعية، وفقاً لمتطلبات المرحلة، وهي بتعبيرها عن اللاشعور تشكل تفريغاً مهماً للدوافع المكبوتة.

ويمكن أن يكون الإعلام صانعاً لحدث يروى فيما بعد كنكتة على سبيل المثال: عندما فر نابليون من جزيرة ألبا سنة 1815 نشرت إحدى الصحف الباريسية أنباء فراره في مقالات كتبتها على عدة أيام، وصدرتها بالعناوين الآتية بترتيب الصدور: فرار الوحش الكورسيكي، وصول السفاح الأكبر إلى خليج جوان، المغتصب يدخل مدينة جرينوبل، بونابرت يقترب من مدينة ليون، نابليون يشق طريقه إلى فونتبلو،صاحب الجلالة الإمبراطور يصل غداً إلى باريس المخلصة»[1].

هناك عدة عوامل تزيد من فعالية انتشار النكتة أهمها «الآنية» التي يمكن الاستعاضة عنها في حال تشابه الظرف الاجتماعي الذي أفرزها، أو ظرفية مكانية وليست زمانية، وهذا ما ساعد على تدويل النكتة وثالث هذه العوامل راوي النكتة، الذي يزيد من جاذبية النكتة وتحقيق الغاية المنشودة منها.

والملاحظ أنه، في كل دولة من العالم ثمة مدينة تكون موضع تنكيت من قبل مدنها ففي تونس سوسة، غابروفو في بلغاريا، الصعيد في مصر، وفي اسكتلندا ابردين، وحمص في سوريا...إلخ، هذا على الصعيد الخارجي، أما الداخلي فضمن ما يسميه بوعلي ياسين «العصبيات المحلية» نجد أن كل مدينتين يمكن أن تتبادلا الأقاويل فيما بينهما تصل إلى حد التجريح. من هنا نجد تنافس أهالي حلب والشام، والرقة ودير الزور، واللاذقية وطرطوس. وفي مجال التنكيت كلهم يستهدفون الحمصي.

والغريب، أنك تسمع الكثير من النكات المتشابهة، وكل بلد ينسبها على الأغلب إلى المدينة التي يطلق عليها النكات أو يُبقي بطلها مجهولاً.

---

(1) بو علي ياسين،ص160.

المزاج الجمعي

وليس ببعيد أن يكون هناك مصدر واحد للنكت يشترك به البشر، يُحَور فيما بعد وفق حاجات كل منطقة وتعالج من خلال مزاجها الخاص وظروفها، كالأساطير مثلاً، وليس ببعيد أنه كما قال يونغ باللاشعور الجمعي وأدوات التعبير عنه الأساطير والأحلام... إلخ. أن يكون هناك (المزاج الجمعي) وأدوات التعبير عنه على سبيل المثال، البكاء، الضحك، الابتسام، وحتى النوادر والنكت..الخ.

وعليه- كما سبق وأشرنا - فمن شأن النكتة أن تقيس هذا المزاج الذي يتحكم بسلوك الإنسان، ويتحكم حتى بغريزته ذاتها، هذا افتراض يحتاج إلى جمع الكثير من نكت الشعوب وتحليلها والمقاطعة فيما بينها، وإبراز أوجه الاشتراك والاختلاف والظرف الذي أوجد النكتة، والنكات التي تخص هذه المنطقة دون سواها، فقد تُطلق نكتة على حكومة في بلد معين، ويمكن أن تُردد في بلد آخر عندما تتوفر للنكتة الظروف الموضوعية التي أنتجت سابقتها. ويمكن أن يكون للمزاج الشعبي (نظراً لعلاقة النكتة به) موقف موحد عند بني البشر إزاء العديد من القضايا؛ يؤدي إلى إطلاق نكتة متشابهة في أكثر من بلد وفي أوقات مختلفة، بالرغم من عدم التواصل المباشر فيما بينهم، وإنما من خلال التواصل غير المباشر وتحديداً (المزاج الجمعي).

تعريف خاص للنكتة

النُّكْتَة، كما يشرحها معجم المنجد الأبجدي، هي مفرد نُكت ونِكات: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في السوداء/ الأثر الحاصل من نَكْتِ الأرض/ شِبْه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما/ المسألة الدقيقة أُخرجت بدقة نظر وإمعان فكر/ الجملة اللطيفة تؤثر في النفس انبساطاً.

من هذا الشرح يمكن أن أستنتج التعريف التالي:

النكتة، هي جملة لطيفة يُخرجها المثقف الشعبي (حلقة الوصل بين المثقف النخبوي والشعب)، ليبسط للعامة ما يجري من حولهم كطريقة لمساعدتهم في تكوين موقف إزاء هذا الحدث أو ذاك، حيث يُزيل هذا المثقف الشوائب التي علقت بالأحداث والمواقف، ما يُحدث نكتاً (تغيُّراً جذرياً) في الحالة المزاجية لمتلقي النكتة تؤثر في النفس انبساطاً. وعليه يمكن أن نسمي انقلاب الحالة المزاجية من حالة إيجابية إلى حالة سلبية نكتة، كما يمكن أن نسمي انقلاب الحالة المزاجية من حالة سلبية إلى حالة إيجابية نكتة.

لنطبق التعريف السابق على النكتة الحمصية:

النكتة التي تروى أمام الحمصي من قبل المدن الأخرى هدفها أساساً (نَكْت المزاج) من حالة إيجابية للحمصي إلى حالة سلبية، ومن حالة سلبية لمن يستمع للنكتة من غير أهل حمص إلى حالة إيجابية.

نكتة:

رامي النكتة	متلقي النكتة	المستهدف
ضحك	ضحك	امتعاض

طبعاً، مع العلم أن الأثر الذي كان مطلوباً إحداثه كما هو واضح من مفهوم النكتة السابق، تحول إلى جانبه الإيجابي من قبل متلقي النكتة أي أهل حمص (باستثناءات قليلة)، ورامي النكتة وهو في أغلب الأحوال الحمصي نفسه لتصبح العلاقة كالتالي:

نكتة:

رامي النكتة	متلقي النكتة	المستهدف
ضحك	ضحك	ضحك

لكن الأمر بالنسبة لمن ينكت مثلاً على أهل السويداء أو درعا... مختلف، ويصح عليه الاستنتاج الأول بدرجة أكبر مما يصح على الحمصي، لأن للبيئات المتنوعة التي عاش فيها الحمصي خصائص جعلت الأسلحة التي استخدمها خصومه غير فعالة، أقصد القصص والنوادر التي وردت في الأدب والتاريخ العربي والتي تحولت إلى نكتة.

يقول إبراهيم عبد القادر المازني وهو «من أبرع كتاب العربية سخرية ونكتة»: «تشعر بالنكتة أنك أخذت ثأرك وشفيت نفسك وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره أو تصغيره والتقليل من شأنه بين الناس»، ويضيف: «هناك غرض آخر تدركه بالنكتة، وهو أن من تطلقها عليه، يكون قد أخفق، لأنك إذا استطعت أن تقابل عنته وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة، فكيف يمكن أن يقال أنه نالك بإساءة»؟[1] المازني يتحدث هنا عن الدور التعويضي للنكتة، بأن ننتقم ممن لا نستطيع أن ننال منهم عن طريق الفعل، فننال منهم عن طريق التقولات، ومنها النكتة.

(1) النكتة العربية بين الماضي والحاضر، علي ديب حسن، ص147.

وجهات نظر حول النكتة الحمصية

ساعد الإرث التاريخ، الجغرافي، الديني، الأدبي، على إصباغ صفة الحمق على أهل حمص، وعليه فإن التنكيت عليهم كان حصيلة لصفة الحمق تلك، فهي من أسلحة الحرب الأيديولوجية في الماضي واليوم أصبحت النكتة، أحد أسلحتها.

حاول الرحالة والمؤرخ أحمد وصفي زكريا من خلال كتابه «جولة أثرية في بعض البلاد الشامية» تقديم تفسير لأخبار الجنون الحمصي التي عمت المعمورة يقول زكريا: «ما يثير الاستغراب أن خبر الخبل والحمق، اللذين وصف بهما ابن جوقل والمقدسي أهل حمص، في القرن السادس، كرره ياقوت في القرن السابع، وزاد عليه بصمات أخرى، حملته على ذكرهما بواعث نفسانية على ما نظن».[1]

ويضيف: سألت بعض فضلاء الحمصيين عن وصمة الحماقة، فلم أجد من ينفع غلة إلا أن أحدهم أجابني، بما يلخص في: «أن الحمصيين كانوا في العصور الإسلامية الأولى ذوي أنفة وعصبية، جعلتهما يثبون مراراً ضد عمال الأمويين والعباسيين، فتأتيهم الجيوش للتأديب والتنكيل، فمن كثرة الضربات التي أنزلت بهم وشدتها، صار من يريد

(1) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر تموز 1934، صفحة 332.

التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة، يتظاهر بالبله مدة مديدة، وتعدى هذا التظاهر بعد حين إلى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها، يتوسل به من يريد الإيهام، ولما كثر عدد هؤلاء المتظاهرين، صار الغرباء يظنون شيوع ذلك في كافة أهل حمص، وتناقلت الألسن هذه الشائعة، ولم يعد في الإمكان التقاطها».

على أن أحسن من أجاب عن أسئلتي بين الحمصيين كان الخوري البحاثة (عيسى أسعد) صاحب تاريخ حمص فقد قال ما خلاصته: «نتج خبر الحماقة والبلاهة على ما أظن، عن اشتهار الحمصيين بإخلاصهم في معتقداتهم ومبادئهم، ويغلب على المخلص تطرفه في تأييد ما يرتئيه، لا تأخذه فيه هوادة، ولا يتبصر بالعاقبة، التي يحرص عليها السياسيون، فمن أمثلة إخلاص الحمصيين موقفهم مع الأمويين، تجاه الإمام عليٍّ رضي الله عنه، والإخلاص الشديد الناتج عن طيب السريرة، يجعل المرء عرضة للانخداع، لذلك نسبت إليهم الغفلة عما لا يهمهم، فأرسل بعضهم كلمة في المعنى، تلقفها عنه سواه، فذهبت مثلاً».[1]

نظرية بو علي ياسين حول النكتة الحمصية:

«التنكيت على «جدبان حمص» ظهر في الخمسينيات، وكان متأثراً بالتنافس بين مدينتي حمص وحماة، في ذلك الوقت كانت الناس تتحدث عن عوران حماة تقريباً، مثلما تتحدث عن جدبان حمص.. ومنذ بداية السبعينيات كما أقدر، لم تعد تعبر عن التنافس التقليدي بين أهالي حمص وحماة، وإنما في مجرد التسلية والمزاح، فعصبويتها تحولت مع الأيام إلى تهزيرية، ما يعني أن الدافع إليها كان في الأصل **التفاخر على أهل حمص**

(1) مرجع سابق 336.

وبالتالي تأكيد الذات[1]. ومن ناحية أخرى يبدو لي أن **الناس تحتاج إلى شخصية نمطية**، كي تنسب إليها نوعاً من الأفعال والأقوال. **ومن الواضح أن شخصية التحامق، وليس الأحمق أعجبت الناس، وهذه شخصية لا تخلو من الحكمة ولا تنفصل عن التاريخ، حاول البعض مع جحا، ثم نسبت إلى الحمصي صفاته وقد لاقت هذه الشخصية قبولاً شديداً في سوريا حتى اتخذت في السبعينيات ظاهرة الصرعة، ساعد في ذلك التأثير التاريخي والتراثي، من خلال الحديث عن مغفلي حمص»**[2].

أما **علي ديب حسن** فيقول: «ليس هناك نكتة حمصية ولا شامية ولا.. الخ. فكثيرة هي النكات التي تروى على أساس أنها حمصية وهي مصرية وفي مصر ينسبونها إلى الصعايدة، والصعايدة هم أناس طيبون مسالمون لكنهم معروفون بقسوتهم وخشونة حياتهم، وبالتالي النكتة عامة شاملة، أما لماذا يتحمل أهل حمص عبء النكتة وحدهم؟ يجيب علي حسن: «ليست هناك أية إجابة محددة أبداً، إنما يمكن أن نقول إن آراء المازني التي طرحها حول انتشار وازدهار النكتة المصرية، صالحة في هذا المجال أيضاً، أهمها: **خفة الدم المصري - الموقع الجغرافي - المكانة التاريخية والاجتماعية**».[3]

وهناك عوامل كثيرة صبغت طبع المصريين بالمرح والفكاهة منذ القدم، كما يقول أحمد أمين: فللبيئة الطبيعية التي عاش فيها المصريون ميزات كثيرة.. منها وادي النيل المعطاء يفيض على الوادي الخصيب... ولا شك في أن الحياة في السهول الفساح المنبسطة وقت المصريين الأوهام والمخاوف وتعقد النفوس.[4]

---

(1) راجع ص 5 من هذا الكتاب، حول رأي بو علي ياسين في هذه النقطة.
(2) بيان الحد بين الهزل والجد، ياسين، ص229 وما يليها.
(3) النكتة العربية بين الماضي والحاضر، علي ديب حسن، ص186.
(4) موسوعة الأدب الضاحك، مرجع سابق، ج2، ص9-10.

تركيبة الشخصية الحمصية:

هذه العوامل، تنطبق بدرجة كبيرة على حمص، فهي أكبر المحافظات السورية مساحة وأكثرها تنوعاً بيئياً، وفيها «كان» نهر العاصي وطبيعته الخلابة. و«**أهل حمص الأذكياء**»، يعتبرون من أمهر الوسطاء في عالم التجارة. فحمص تشترك مع حلب ودمشق في السيطرة على حركة التجارة والمرور بين الشرق والغرب، والفرس والروم، ووادي النيل، ووادي دجلة، حتى أن هذا الطريق، الأخير، الذي كان يربط بين أقدم حضارتين، يعتبر في نفس الوقت أقدم طريق تجاري عرفه العالم.[1]

وحمص، هي المنطقة الوسطى في سوريا، وبالتالي هي ممر رئيس للمسافر والتاجر ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، بالإضافة إلى كونها مركز للتفاعل الاجتماعي وهذا يؤثر على تركيبة الحمصي القادر على التأقلم بسرعة في أي مكان يقيم فيه، بالإضافة إلى كونه محبوباً من قبل أكثر - إن لم نقل كل- المناطق السورية.

وفي سوريا، معروف الحمصي بخفة دمه ودماثته، غالباً ما تنقذ أهل حمص من مواقف حرجة «يستنتج د. محمد المخزنجي في استطلاعه عن مدينة حمص من إحدى أساطير حمص الحية التي تقول إنها مرصودة من العقارب، ما يدعم القول بطيبة الشخصية الحمصية إذ يقول : يُفسر عدم وجود العقارب بعدم ملاءمة التربة لبيضها، وثمة تفسير علمي آخر يقول لوجود مادة الزئبق في تربة حمص. ويتابع: «إنها أسطورة يرجعها البعض إلى جذور طوطمية ضمن الرموز الدينية للقبائل البدائية القديمة، لكن المدهش أنها ظلت تعبر بثبات ما تعاقب على المكان من معتقدات وثنية آرامية، فيونانية، فرومانية، ولم تتوقف الأسطورة عن الحياة بعد ذلك سواء

(1) حمص...، مجلة العربي- العدد -52 آذار، 1963.

مع مجيء المسيحية في الواقع، فلا عقارب -حقاً- في حمص. ولعل ذلك يدعم القول بطيبة الشخصية الحمصية التي هي - على الرغم من عناد ومباشرة صادمة أحياناً- أبعد ما تكون عن أي ملامح للغدر والمؤامرة والالتفاف واللدغ التي تتسم بها العقارب».[1]

ولعلنا واجدين في تاريخ المدينة التي يعود تاريخها إلى نحو 2400 ق.م ومنهم من يردها إلى تاريخ أقدم، ومعنى اسمها علاقة بشخصية سكانها، فثمة من يقول إن حمص هي لفظ آرامي «الأرض **اللينة**» وثمة من يقول إن اللفظ حمص جذر كنعاني يعني فيما يعنيه «**الخجل**» ربما من حمرة اللون، ويرجعون أصل المدينة إلى قرية لبنانية هاجر سكانها إلى موقع المدينة الحالي، عندما تعرضت الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط منذ منتصف القرن 15 ق.م إلى غارات «شعوب البحر» أو لصوص البحر عليها، ولعل حمص اللبنانية أصابها ما أصاب أوغاريت التي تهدمت وأحرقت على يد هؤلاء المغيرين عام 1100 ق.م. ومن ثم انسحب الناجون من حمص اللبنانية باتجاه الشرق التماساً للأمان. وأقاموا في المنطقة الوسطى من سوريا في موقع التل الحالي، وأنشأوا قرية أسموها حمص ليعبروا عن تعلقهم بموطنهم الأول على عادة النازحين في كل زمان ومكان[2].

و«المستعرض لبنية حمص الظاهرية يلاحظ عدم وجود الجبال المعيقة بها، لهذا كانت -ولاتزال- عقدة مواصلات مهمة. ولقد ساهم موقعها ليس في جعلها منطقة اتصال إداري مهم فحسب، بل جعلها منطقة اتصال ثقافي، واتصال اقتصادي، واتصال إنساني».[3]

---

(1) حمص... رحابة المكان، مرافئ الزمان، العربي- العدد -456 تشرين الثاني1996.
(2) حمص دراسة وثائقية في الحقبة من 1840-1918م، مرجع سابق ص2-3.
(3) حمص... رحابة المكان،، مرجع سابق ص126.

وجهة نظر... خلاصة ما سبق

«لو منع الناس من مدح أنفسهم وذم الآخرين، لقلت مادة الكلام»

أثارت انتخابات العام 2006 لفرع اتحاد الصحفيين في محافظة حمص الكثير من الاحتجاجات في صفوف الصحفيين البعثيين نظراً لفرض الأسماء من قبل فرع حزب البعث.

فعبر أحد المرشحين عن احتجاجه على طريقة «الإملاء» التي فرضت على الناخبين بأن قام بترشيح كل من الفنانة هيفاء وهبي، ونانسي عجرم، وإليسا لتمثيله في اتحاد الصحفيين، والطريف أن أسماء الفنانات الثلاثة تليت أمام الصحفيين مترافقة مع احتجاج رئيس اللجنة الذي اعتبر الأمر «عيباً»[1].

يمكن الآن النظر إلى مراحل تطور تاريخ التنكيت على أهل حمص ضمن دائرة تاريخية بدأت بعيدٍ للمجانين اندثر وبقي صداه في يوم الأربعاء عبر التاريخ ثم عبادة تصل طقوسها إلى حد الجنون، ثم بلاهة، ثم تباله، ثم حمق، ثم جدبة، ثم جنون، وبذلك تعاد الحلقة ذاتها لكن مع تغير المفاهيم.

تظهر الفصول السابقة أن حمص كانت مرجعاً دينياً على **صعيد الأطوار الدينية** التي مرت بها. كما أنها كانت «كعبة» للماجنين ومحبي اللهو والطرب.

ويمكن أن نشبه حمص بعملة لها وجهان، وجه مادي (اللهو والمجون) والآخر روحي (التصوف).

---

(1) حزب البعث وصحفيو حمص، نشرة كلنا شركاء في الوطن عدد 14 تموز 2006.

وتاريخ حمص الذي فصّلناه، بما يخدم موضوعنا، أظهر كيف اجتمعت في حمص تلك الصفتان المتناقضتان، وهنا يمكننا أن نجمل ما توصلنا إليه من نتائج خلال دراستنا:

يوم الأربعاء: هو يوم مقدس، في حمص، إذ فيه كان يتم التحضير لأعياد الربيع القديمة، والتي منها يوم المجانيين أو «عيد المجانيين»، إلى أن اندثر ولم يبقَ منه إلا التسمية.

ثم جعله بعض المتصوفة المسيحيين «يوم الرب» وبذلك تم إيجاد علاقة بين يوم الأربعاء والسيد المسيح «فكان ليوم الأربعاء متمما» كما يقول المتصوف الإسلامي ابن عربي. وفي التصوف الإسلامي دخلت كلمة المجاذيب والدراويش كإحدى درجات التصوف في الطرق الصوفية، فنظروا إلى المجاذيب على أنهم صالحي هذه الأمة وهم رجال الغيب المعنوّن (بأهل الله) والمجذوب لغوياً هو المختل عقلياً.

وليس من المستبعد أنه كان يجري في هذا اليوم إحياء لذكرى ما، أو احتفاء بمناسبة معينة، وعلى الأرجح أنه كان يوماً خاصاً بحمص دون المناطق الأخرى.

1. حمص لفظ آرامي يعني «**الأرض اللينة**» وجذرها الكلمة الكنعاني يعني فيما يعنيه «**الخجل**»، وإن كان هذا حال اسمها فإن موقعها وفر لها أهمية حضارية دينية وسياسية واقتصادية طبع أهلها بصفات اللين والطيبة.
2. كانت طقوس عبادة إله الشمس الحمصي، ترافق بحركات طقسية تعتمد الرقص والموسيقى... التي يتصاعد إيقاعها ويصخب ويتسارع إلى حد الهذيان، كل ذلك كان يثير نشوة الجماهير حتى الجنون، وهذه الطقوس بقدر ما كانت مألوفة في حمص، كانت

على ما يبدو في نظر الرومان شاذة، رغم صلة حضارتهم بعبادات ماجنة كعبادة ديونيسيوس وباخوس.

3. لم يختر «القديس» سمعان المتباله، التباله كطريقة في العبادة إلا ليحافظ على الإرث الروحي الذي حصله عن طريق تصوفه، فالمنطق الصوفي يقوم أساساً على احتقار الجسد عن طريق إهمال غرائزه لصالح ما هو أسمى أي الحاجات الروحية والتواصل مع الخالق وصولاً للتوحد معه. فهذا الإرث الروحي الذي كانت حمص قد حصلته هو الذي جعل من أهلها يستوعبون هذه الطريقة تمهيداً لتطبيقها ثم نشرها في العالم. وهي طرق كان لها امتداد في التصوف الإسلامي.

4. بناءً على ذلك أصبحت حمص «عاصمة التباله الروحية». لها في ذلك فلسفة خاصة[1] [«تسعى إلى الاستيلاء على المطلق بعاصفة (طقوس العبادة)، وهي تشعر بأنه حيث فشلت الرصانة فقد ينجح السكر الروحي» «لأن العقلية المنطقية لا تعمل إلا في نطاق النظام الطبيعي، وتبعاً لذلك فإن النظام الإلهي لا بد أن يكون غير قابل للمعرفة من جانب العقل المنطقي» فنحن ننتقل بالتصوف «من عالم الفكر والعقل والفلسفة إلى أرض الأحلام والظلال» على اعتبار أن التصوف هو «النصف الآخر من الحقيقة الذي أغفلته الفلسفة الطبيعة» وهو طريق يعتمد على «الحدس الديني... واللغة الرمزية» اللذين يقومان مكان «العقل، واللغة في النظام الطبيعي»،

(1) هذه الأفكار التي سترد فيما يلي للفيلسوف «ستيس، 1886-1952» وردت في دراسة لأعماله وتحديداً لكتابه «التصوف والفلسفة»، وطبعاً لم يرد ذكر للتباله كطريقة في التصوف فيه، وإنما وجدت أن هذه الأفكار تخدم الموضوع الذي نبحث فيه (ملحق السفير الثقافي، الجمعة 15 آذار 2002، نواف الموسوي).

وبالتالي (فقد رأت هذه الفلسفة أن) ما تحتاجه الإنسانية[1] ليس ببغاوية تزعم عقلانية مضحكة، بل ما يملأ خواءها المادي بـ «الوجود الروحي» الذي لا يشغله متحذلقون، بل صادقون في التحرر من أسر المادية الكاسرة»] ليحلقوا في سمائهم الخاصة.

5. هذه هي البيئة الدينية التي ترعرع فيها التصوف على الطريقة الحمصية. لكن «التباله» بدأ يأخذ معناه المادي على يد العرب المسلمين خلال حروبهم التي قاموا بها للسيطرة على بلاد الشام، وتحديداً بعد وفاة الرسول العربي الذي كان مدركاً لأهمية حمص الدينية، وهذا يظهر في حديث رواه أحمد بن حنبل في مسنده: «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال سرت حتى أدخل الشام ثم أنزل حمص فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليبعثن الله منها يوم القيامة سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب عليهم مبعثهم فيما بين الزيتون وحائطها في البرث الأحمر منها»[2]

---

(1) كما يقول نواف الموسوي كاتب المقال.

(2) البرث جبل من رمل سهل التراب لينه والبرث الأرض السهلة اللينة والبرث أسهل الأرض البرث أرض لينة مستوية تنبت الشعر وفي الحديث يبعث الله منها سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب فيما بين البرث الأحمر وبين كذا البرث الأرض اللينة قال يريد به أرضا قريبة من حمص قتل فيها جماعة من الشهداء والصالحين ومنه الحديث الآخر بين الزيتون إلى كذا برث أحمر. (لسان العرب، لابن منظور ج2، ص115) وحمض بالفتح ثم السكون والضاد معجمة وهو في اللغة كل نبت فيه ملوحة ترعاه الإبل وادي حمص قريب من اليمامة له ذكر في شعرهم، حمص وعريق بالتصغير موضعان بين البصرة والبحرين شرقي الدهناء وقيل هو بين الدو وسودة وهو منهل وقرية عليها نخيلات (ياقوت معجم البلدان 2/ 305). ولكن الحديث واضح أنه يقصد حمص الشام وليس حمص أو وادي حمص الكائن قرب اليمامة.

6. العامل الأهم في تكريس صفة «الحمق» المادي كان صفحات الأدب والتاريخ العربي، التي حملت بين طياتها صراع العصبيات العربية والطائفية.

7. كثيراً ما تطلق صفات جحا على الحمصي، كهذه النكتة التي تروى على جحا في الكويت وتنسب إلى الحمصي في سوريا: «كان جحا لا يعرف القطار. ولما سأل عنه، قيل له: هو أسود طويل. ثم أراد جحا أن يسافر، فرأى رجلاً طويلاً، فحاول الركوب على ظهره. قال الرجل: ماذا تفعل؟ فقال جحا: أريد أن أسافر» وخاتمة نكتة الحمصي أجمل: «يالله، شدّ عَ حمص»[1]

8. وجحا على ما يروي ابن الجوزي «يكنى أبا الغصن، وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم، عن مكي بن إبراهيم أنه يقول: رأيت جحا رجلاً كيساً، ظريفاً، وهذا الذي يُقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه، فوضعوا عليه»[2]. وكأن ابن الجوزي أكثر المتحاملين على أهل حمص كياقوت يلخص ما أردنا أن نقوله في شأن النكتة الحمصية، أن من كان يعادي أهل حمص وضع لهم النكات.

في حرب الآيديولوجية الفكاهية التي خيضت ضد حمص كان الهدف الرئيسي (نَكْت المزاج) من حالة إيجابية للحمصي إلى حالة سلبية ومن حالة سلبية لمن يستمع للنكتة من غير أهل حمص إلى حالة إيجابية لتحقيق الهدف من تحطيم معنويات العدو أوالتشفي والانتقام منه. طبعاً مع العلم أن الأثر الذي كان مطلوباً إحداثه كما هو واضح من مفهوم النكتة

(1) بيان الحد بين الهزل والجد، مصدر سابق، ص243.
(2) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، ص40.

السابق، تحول إلى جانبه الإيجابي من قبل متلقي النكتة أي أهل حمص (باستثناءات قليلة) ورامي النكتة وهو في أغلب الأحوال الحمصي نفسه.

يمكن القول إن النكتة الحمصية هي بنت الشعر «الهجائي» والقصص الفكاهية والنوادر التي ولدت على فراش الحياة العباسية «الوثير» (في القرن الثاني عصر الشك والمجون كما يسميه د. طه حسين والقرن الثالث) الذي أفسح المجال لحرب الأيديولوجية الفكاهية أن تأخذ دورها في الصراع (المسيّف) السني/ الشيعي المتبلور خلال العهد الأموي بعد أن شهدت مخاضها في العصبية القبلية (القيسي/ اليمني)، والتعصب الطائفي.

وعليه كان التنكيت على أهل حمص تحصيل حاصل للعصبية القبلية والطائفية وبشكل أدق للصراعات السياسية- الدينية التي كانت وما زالت تحكم عالمنا العربي.

كان السيف من وسائل الصراعات العربية/ العربية، والإسلامية / الإسلامية على الصعيد الداخلي، و«العربسلامية»/ الخارجية عبر التاريخ، كسلاح مادي تطور مفهومه بالتطور التكنولوجي. وكان الشعر (الهجاء، والمدح)، والقصص والنوادر من الأسلحة النفسية (في التاريخ الحديث للعرب أصبحت الخطابة التي فُرغت من محتواها، نظراً لاحتراف العرب لنوع جديد من الأسلحة في مواجهة خصومهم يعتمد العبارات الطنانة الفارغة في حلّ مشاكلهم).

وليس استمرار التندر على أهل حمص حتى الآن إلا شكل من أشكال الأسلحة التي اعتمدت الشعر والقصص والأخبار الفكاهية في الماضي للتسلية والتقليل من أهمية الخصم.

ويبرز الجانب العدائي (الهجائي) للنكتة عن طريق هجاء الحمصي بإطلاق أوصاف معينة عليه، وهي في نفس الوقت تسلية، تعتمد الأسلوب الرقيق والعبارة الرشيقة لتصل إلى المتلقي بأقل جهد.

طبعاً لم تأخذ الروايات التي أُطلقت على «الأحمق الحمصي» شكل النكتة كما نعرفها الآن، لأن الفترة المناسبة التي ظهر فيها التنكيت على أهل حمص، كانت على الأغلب «فترة ركود نسبي على المستوى الاجتماعي-السياسي» حيث يكون المناخ مناسباً لحرب الأديولوجية الفكاهية، وذلك يتجلى بأوسع مدى له أواخر النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي إذ ظهرت في تلك الفترة نكتة تقول: «أن أهالي حمص تقاسموا نهر العاصي مع أهالي حماة بحبل، وفي اليوم الثاني وجد الحمويون حمصياً يقف في قسمهم وينقل الماء بالعلبة إلى قسم أهل حمص».

وفي فترات «الركود» تُستعاد الخلافات مهما كانت بسيطة وذلك يصح حتى على المستوى الشخصي فما بالنا على مستوى دول أو عصر من العصور، لذلك فإن فترة الحكم العثماني، مثلاً، منذ بدايته، لم تكن أفضل من عصر إنحطاط الدولة العباسية، لكننا لاحظنا فيه بداية للتحول عن التعصب. ولنا في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني مثلاً على ذلك وهو «المعارضات الزينية للمنظومات الهلالية» ففيها لاحظنا أن موقف أهل حماة من هذه المعارضات بأن يكثروا المزاح مع الهلالي باستحسان أقوال ومعارضات الشيخ الحمصي «لتقطيع الأوقات وجلب البسط»، أهمية في «تناسي» تعصب الماضي، فلم تعد سرقة بطيخة «تجعل الدم للرُكَبْ» على حد قول المثل الشعبي، كما كان في السابق.

ونلاحظ من النكات التي ظهرت أواخر ثلاثينات القرن الماضي مقارنة مع قصة الشاعرين أن أهل حمص كانوا يسخرون من أهل حماة أكثر مما كان يفعل الأخيرون، «امرأة سقط ابنها في العاصي، فأخذت تفتش عليه من حماه حتى حمص. ولما وصلت إلى حمص. قالوا لها: أنت غلطانة، لازم تفتشي عليه من حماه لأنطاكية، لأن العاصي بيطلع طلوع ما بينزل

نزول. هزت المرأة رأسها وقالت لهم: انتو ما بتعرفوا ابني، ابني تنح ودائماً معاكس»[1].

ولم يكن أهل المدينتين يتركان فرصة تمر دون أن يتخذوا منها فرصة «للتشنيع» على بعضهما. فيقول أبناء حمص في معرض «تشنيعهم» على أهل حماة: «صعد حموي إلى طرف المئذنة، فصرخ به الناس يطالبونه بالنزول لكنه رفض.. في هذه الأثناء مر حمصي ورأى الجماهير وعلم بالقصة، فطلب سيفاً، وأمسكه بيده، وقال موجهاً كلامه للحموي الذي في نهاية المئذنة: إذا لم تنزل حالاً سأقطع المئذنة بهذا السيف! فخاف الحموي ونزل!. ويرد الحمويون على هذه «التشنيعة» فيقولون: كثرت «تشنيعات» أهل حمص علينا، فرأينا أن خير وسيلة لإيقافهم، عند حدهم هو أن نرسل إليهم مندوباً، قال لهم: إذا لم تكفوا عن تشنيعاتكم على أهل حماة، فسنضطر لقطع مياه نهر العاصي عن حمص!! ومنذ هذا اليوم توقف أهل حمص عن التشنيع على حماة، كما يقول أهل حماة!! خوفاً من قطع مياه العاصي من حماة عن حمص. والنكتة هي أن نهر العاصي ينحدر من حمص إلى حماة، وليس من حماة إلى حمص![2] (أي من الجنوب إلى الشمال، عاصياً باقي أنهار سورية لذلك سمي بالعاصي)[3]. وربما بدأت

---

(1) بوعلي ياسين، مصدر سابق، ص232، نقلًا عن المضحك المبكي، العدد393، تاريخ 5/ 11/ 1938.

(2) مجلة العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، 1963.

(3) يقول وليد قنباز: (إن ذلك لم يكن السبب الوحيد لتسميته بالعاصي: «فالبعض يرد التسمية إلى أن مصب النهر في البحر قرب السويدية وعلى بعد 27كم من أنطاكية وأنطاكية وما حولها بقيت بيد الروم البيزنطيين بعد دخول الإسلام وفتوحاته وبعد الروم دخلها الصليبيون بأياد غير عربية وكان العاصي يرويها فقالوا كيف لنهر يجري في ديار الإسلام يدخل أرض الكفر ويروي أهلها..؟ إنه عاص!! (مجلة العربي العدد 484، مارس، 1999، في استطلاع عن مدينة حماة) ويقول آخرون: =

منذ تلك الفترة تشنيعات أهل حماة تزداد على أهل حمص بشكل ملحوظ!

تلك التشنيعات التي أدت إلى نشوب معارك عديدة بين أهل البلدين، ولكن جميع هذه الخلافات زالت الآن من الصدور وإن كانت ما تزال تدور في النوادي والمجتمعات كتسلية وتمضية للوقت. يروي أحدهم هذه النكتة: «كان حموي وحمصي يسيران في الطريق، فقابلهما غريب، فسأل الأول: من أين أنت؟ قال: من حماة... حماك الله. وسأل الثاني: ومن أين أنت؟ فقال من حمص... حمصك الله![1]

من العوامل التي ساعدت على كبت الطابع التعصبي بين الحموية والحمصية **وتجلياته عبر المزاح والتسلية** دخول الشامي كطرف شريك للحمصي في النكت، نتيجة الهجرة الداخلية التي شهدتها العاصمة دمشق من المدن السورية المختلفة وزيادة احتكاك أهلها بعضهم ببعض.

وأصبح هناك نوعان من النكات إحداها تتحدث عن الغباء الحمصي والثانية عن ذكاء أهل حمص:

النوع الأولى: تقول: أن شامياً يتنزه مع حمصي في دمشق، فوجد أن الحمصي يلقي السلام أكثر منه على الناس، فقال له الشامي : غريب هناك الكثير من أهل حمص في دمشق، فأجابه الحمصي: لَكَنْ كيف ما تشوفون بحمص.

- أربعة حماصنة قصدوا دمشق للعمل، فنصحهم أصدقاؤهم بأن يشارطوا شوفير التاكسي قبل أن يركبوا السيارة، لأن شوفيرية الشام «بلهموطية»، فشارطهم شوفير التاكسي الشامي بعد جدل طويل بـ 25

= لأنه تأبى على ضفافه فاحتال عليه الحمويون بنواعير تغني له وتسرق مياهه دون أن يدري، حتى أن أحد الشعراء قال: عصى فلم يسق أرضاً من حدائقهم إلا بحيلة وسواس النواعير).

(1) مجلة العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، 1963.

ل.س أجرة توصيل، وعندما وصل الأربعة إلى مكان عملهم أعطاه كل واحد منهم 25 ل.س.

النوع الثاني: خطر لشامي وهو راكب على دراجته الهوائية (بسكليت) أن يسخر عما يُشاع عن ذكاء أهل حمص فوقف أمام كازية يمتلكها حمصي وقال له: امسح لي بلور السيارة، قال له الحمصي: هذه «بسكليت» وليست سيارة، قال له الشامي: إنتي ما دخلك حبيبي نضف البلور، وكل شي بحقو، فتظاهر الحمصي بأنه ينظف البلور، لكن الشامي زاد الطلبات على الحمصي فمرة يقول له عبي بانزين، وغير زيت الفرام، وغيّر بواجي السيارة وكل شي بحقو، تظاهر الحمصي بأنه فعل كل ذلك، وبالفعل دفع الشامي وهو يسخر من الحمصي النقود كاملة، وأثناء خروجه من باب الكازية عاجله الحمصي بلكمة قوية على رأسه وهو يقول للشامي أعتذر لأني لم أغلق لك طبون السيارة.

- لماذا يغطي الحمصي وجهه عند يأتي إلى دمشق؟ لأن الشامي ما بينعطا وجه.

هناك «حكاية باسمة» يرويها نجاة قصاب حسن مجهولة الطرف المشارك للحمصي، تقول: «دخل حمصي إلى دكان فيها ساعات كثيرة معلقة. وقال: بكم هذه الساعة؟ وأشار إلى واحدة منها، فأجابه الرجل: ليست للبيع. قال الزبون: وهذه؟ قال صاحب المحل: ولا هذه. قال فأيها للبيع؟ أجاب ولا واحدة. أنا لست ساعاتياً، أنا مطهر أولاد. قال له الرجل مستغرباً: فلماذا تعلق هذه الساعات؟ أجاب المطهر الحمصي: ماذا تريد أن أعلق لك إذاً؟[1] (وهذه النكتة يرويها الشوام اليوم عن الصفوري مطهر الأولاد المشهور مع إغفال السائل، وبعضهم يجعل السائل هو الحمصي والطرف الآخر الصفوري).

(1) حديث دمشقي، مصدر سابق، ص344.

ونظراً لأن عنصر (تكثيف الحدث أو الفكرة) في النكتة- إن صحت التسمية- منحها وضعاً أرقى من القصة الفكاهية، وكان تعبيراً عن ارتقاء مستوى التفكير لما فيه من حس عالٍ في «التقاط اللحظة» وصناعتها ورميها وانتشارها ربما في الوقت نفسه، والأرجح أن النكتة الحمصية لم تنتشر بمثل ما هي عليه الآن، إلا أواخر السبعينات حيث بدأ الحراك السياسي «يحتضر» ويضعف حتى التلاشي في الواقع السوري وخاصة في النصف الأول من الثمانيات نتيجة للعديد من الضغوط الداخلية والخارجية ليست موضوع دراستنا، ولا يخفى على أحد ما للفتور السياسي وتراجع الاهتمام بـ«الشأن العام» من دور أساسي في صرف العامة وحتى المهتمين عن الأمور الجوهرية ودفعهم إلى الاهتمام بالأمور السطحية، سيما أن ذلك ترافق مع «عزل الشارع السوري» عن رجالات الفكر وقادة الرأي.

ففي خمسينيات القرن الماضي ساهمت «الفورة السياسية والاجتماعية والثقافية» التي سادت سورية بعد فترات «الركود» في تحرير «الزخم السوري» الذي كان يتبدى بين الحين والأخر خلال «فورات التحرر» من الاستعمار- بكل أشكاله- وهذا شكل صحوة كان لها الدور الأساسي في تخفيف - وليس تناسي - حدة التعصبات المحلية والطائفية والسياسية التي شغلت الشارع وشكلت القسم الأكبر من اهتماماته، وبرلمان الخمسينيات خير مثالٍ عليها، ونحن نذكر رأي الحمصي الذي يحمّل ياقوت كل ما حصل بين أهل حمص والحموية علماً أن رأيه ورد عام 1963، لكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً إذ تم وأدها، واستعيدت حالة الركود. وفي فترات الركود السياسي الإجتماعي الثقافي يصبح شغل الناس هو الناس، وليس «الهم العام».

يقول نجاة قصاب حسن في مذكراته: «كنت حين يسألني أحدهم عما إذا كنت دمشقياً أجيبه نعم لكن بعد تيمور، وأحسب أن جوابي ذكي

وخفيف دم، وأنني أتبرأ من صفة ألصقها من لا يحبون دمشق أو من يداعبوننا إذ يقولون عن أهلها (بناديق تيمورلنك).

وبعد أن قرأت قصة دخول تيمورلنك إلى دمشق وجدتني أستحي أن أجيب على سائلي بالجواب القديم وأقول: نعم أن دمشقي، وفخور بانتمائي إلى مدينة ما ركعت أمام الغزاة[1]... فدمشق اغتصبت غدراً وما ركعت حرباً، فهي تستحق أن تقف بشرف بعد كبوتها...وإذا كان من يتحدثون عن (البندقة) يشيرون إلى تهجين النسل، فإن سورية ملتقى الحضارات والغزوات منذ آلاف السنيين، استقر فيها الكثير منهم، وتركوا من الأولاد في عشرات القرون أكثر مما يمكن أن يترك الغصب في ثلاثة أيام، بآلاف المرات... إذاً فليس علينا أن نخجل إذا داعبنا أحد بموضوع هذه (البندقة) وأصلاً لا يقولها غير الدمشقي للدمشقي إلا للضحك. ولكن علينا أن نرد بذكر الحقيقة عن هذا التاريخ المجهول. ثم نضحك فعلاً ونعتبرها دعابة لا تصدق علينا مثلما لا تصدق الدعابات عن حمص، فقد رأيتم أن ذكاء أهلها كان بأن تشاطروا على تيمورلنك (عندما استقبلوه بالدفوف) فحسبهم معه، وما يزال أهل حمص يستخدمون سمعتهم الضاحكة حتى يحققوا من مطالبهم ما يشاؤون، المدن كالبشر، لها ناسوت قد يستمد عناصره من مناخها»[2].

وأستعيد هنا موقف أحد الحاضرين بعد أن خرج من محاضرة نهاد سمعان التي تحدث فيها عن يوم الأربعاء في حمص بتاريخ 6/ 2/ 2002 حيث قال: «والله ها لجدبة شغلة بترفع الراس ومانا شغلة سهلة أبداً».

أخيراً أدعو إلى إقامة مهرجان عالمي للفكاهة في مدينة حمص، كما دعا في وقت سابق بو علي ياسين في كتابه بيان الحد بين الهزل والجد فأهل

---

(1) حديث دمشقي، مصدر سابق ص17.

(2) مصدر سابق ص 25-26.

حمص ليسو أقل ظرفاً من أهالي «غابروفو وسوسة أو أبردين» الذين تُطلق عليهم النكات في كل من بلغاريا وتونس واسكتلندة، وهي مدن يقام فيها مهرجانات للضحك ويطلق على أهلها نكات كالتي تطلق على الحمصي مع فارق بسيط وهي أن الحمصي أكثر نجومية منهم، أكثر من ذلك لماذا لا يتم العمل على أن تكون حمص عاصمة للضحك في العالم فكم أصبحنا بحاجة إلى مدينة ضاحكة تثور على ما يسود في عالمنا من كآبة وحروب.

الحمصي في فضاء الإنترنت

تم جمع هذه النكات من مواقع الإنترنت ومما يتم تداوله بشكل كبير على الشبكة العنكبوتية بين الأصدقاء سواء في مواقع الدردشة أو عبر البريد الإلكتروني:

حمصي راح لعند ضابط بوزارة الداخلية قله
بدي أترشح لرئاسة الجمهورية. قله الضابط إنت مجنون شي؟
فأجاب الحمصي: هاد شرط يعني؟

حمصي وشامي راحوا على محطة القطار
ولما وصلوا لقوا القطار مشي..
ركضوا مشان يلحقو القطار..
الحمصي أسررررع ولحق وركب القطار
والشامي ماقدر يلحق من كثرة الضحك
سألوه ليش عم تضحك؟؟؟؟؟؟
قال هالأجدب أصلاً جاي يودعني!!!

حمصي قال لشامي واجعيني عيوني وعم شوف طول النهار نقط سودة بعيوني

قله الشامي شفت شي دكتور عيون؟؟

قله الحمصي لأ شفت بس نقط سودة!!!

حمصي وقع بجورة. صرخ الحقوني فوقع عشر حماصنة وراه

قال حمصي لصديقه: بتشرب قهوة.

قال صديقه: إذا شربت قهوة ما بقدر نام.

قال الأول: أنا بعكسك تمام بس نام ما فيني أشرب قهوة

- هل تعلم لماذا انقرض أهل حمص؟ لأن حمصي وقع في بئر وأخذ يصيح «الحقوني... الحقوني» فتبعه أهالي حمص كلهم.

- وهناك نكتة تقول: «أن **مستشرقاً** زار حمص، لكنه رجع إلى بلده **مستغرباً**».

- هل تعلم لماذا فُقد ظروف لبتون من حمص؟ لأن أهل حمص استعملوها ميد ليات.

- حمصي جالس عند الحلاق، اتصلت معه والدته على الموبايل، فقال لها مستغرباً: «أُمي، كيف عرفت إني عند الحلاق».

- انتحر الدجاج في حمص بعدما قالوا لأهلها: «خلي الماجي تنفعكم»

- جاء في البرنامج الانتخابي لمرشح حمصي:1- مكافحة التلوث 2- نقل مدينة حمص من شرق المصفاة إلى غربها.

- صمم أهل حمص موقعين على الإنترنت واحد شتوي عنوانه www.Homs.com والآخر صيفي عنوانه www.Homs.Noscom

- لماذا يأخذ الحمصي دواءه قبل نصف ساعة من موعده؟

حتى يفاجئ الجراثيم.

- لماذا يأخذ الحمصي دواءه بعد ساعة من موعده؟

لتطق الجراثيم من يغيظ.

- «دخل فيلسوف شارد الذهن إلى محل تجاري ليشتري آنية من الخزف، فلمح واحدة في وضع مقلوب، فقال مندهشاً: عجيب، إن هذه الآنية ليس لها فتحة في أعلها. ثم تناولها فقلبها إلى الناحية الأخرى التي بها الفتحة وصاح مرة أخرى: عجباً ليس لها قاع»

يعلق بو علي ياسين على أن هذه النكتة نُشرت في مصر 1947 وسمعها «شخصياً» عن أهل حمص عام 1989.[1] طبعاً هذه النكتة لا تزال تروى حتى الآن عن أهل حمص، وهي قريبة من حادثة (صب الزيت) التي ذكرها علي مروّة في موسوعته عن الأدب الضاحك عن تاريخ المسعودي.

* حمصي يتسبب بكارثة لأهل حمص

وإليكم هذه النكتة الذكية (أرويها بتصرف): «قرر أهل حمص بعد أن كثرت النكات التي يطلقونها على أنفسهم، ترقيم نكتهم وبدل أن يقولوا النكتة، يكتفوا بأن يقول الرقم الذي يدل عليها، لكن واحداً من أهل حمص لم يكن في حمص عندما فعلوا ذلك، ولما رأى أصدقاءه يتبادلون النكتة الرقمية «ديجيتال» ويضحكون عليها من صميم قلوبهم، أحب أن يشاركهم، فقال لأصدقائه: «النكتة رقم 3»، فساد الصمت والذعر بينهم، وما هي إلا لحظات أتى خلالها رجال الأمن، وأخذوا الجميع إلى السجن.

---

(1) مصدر سابق، ص233.

سمعت مؤخراً (على هامش الحرب الأميركية على طالبان) قصة واقعية قام بها طلاب إحدى المدارس الثانوية في مدينة حمص، حيث أرسلوا إلى مدير مدرستهم مظروفاً، وعندما فتحه وجد داخله مسحوقا أبيض اللون، ورسالة جاء فيها: «مع تحيات بن لادن» فأصيب المدير بالذعر، خوفاً من الجمرة الخبيثة التي سمع الكثير عنها في وسائل الإعلام، لكن المسحوق لم يكن إلا بودرة أطفال.

- أحد ظرفاء مدينة حمص، رشح نفسه لبرلمان الخمسينيات، وكان شعار حملته الانتخابية: «حاسبوني بعد أن تجربوني».

- حاول الحموية أن يلفتوا أنظار العالم إليهم بعد ما انتزع أهل حمص اهتمام العالم، فأنشأ الحموية سداً في الصحراء ما أثار استغراب المحطات الفضائية وكاميرات الصحف التي بدأت تغطي الحدث، وفي اليوم التالي شوهد ثلاثة حماصنة جالسون على طرف السد يصطادون سمك.

- وهاهو الحمصي تلك الشخصية الهوليودية يشترك مع الأميركي والياباني والروسي في اختبارات انتقاء أغلى دماغ بشري، وفيه قُدر عقل الأميركي بـ500دولار، وعقل الياباني بـ1000 دولار والروسي بـ200دولار، في حين قُدر عقل الحمصي بـ100ألف دولار، وعندما طلبت الدول السابقة توضيح لماذا بلغ دماغ الحمصي هذا السعر، جاءهم الرد بأن اللجنة كانت تجد عند فتح جمجمة أي شخص من مواطني الدول السابقة دماغاً، في حين كانت تجد في جمجمة كل 200 حمصي دماغاً.

- طلعوا لاعبين الكرامة من المباراة مع الفريق الكوري عم يسبوا المدرب سألوهم ليش؟؟؟

قالوا لأنو المدرب عطانا خطة المان تو مان وما بقى نعرف لاعب من التاني.

ليش الحمصية بعد ما تتحمم بتطب راسها؟؟؟
لأنو مكتوب على العلبة شامبو طُبي.

حمصي لغى موعده مع الدكتور لأنو مريض.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد..
ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع..
هكذا يعلن الطيار الحمصي عن بدء إقلاع الرحلة

حمصي عم يمشي مع واحد لادقاني، قال اللادقاني : ليك في كتير حماصنة هون باللادقية
قال له الحمصي : لكن ما تجي لعنا على حمص كلن حماصنة

حمصي سكران عم يعتذر من رفيقو، قالو
يستر على إيدك هات أختك لبوسها

حمصي غبي ماشي مع بنت، شافت أبوها،
قالت: يا ويلي شو أعمل
قال لها: بسيطة قوليلو إني أخوكي

محشش حمصي قال لمحشش تاني: من امبارح وبالي مشغول
قال له التاني: يمكن حدا رافع السماعة

هاي، كول مي بليز
حمصي باعت مسج لواحد موبايلو ما بيستقبل عربي

عجوز حمصية سمعت أنو الدش حرام
قالت الحمد لله! سبعين سنة وأنا بتحمم بالسطل

حماصنة يتدربون على ربط الكرافة
سبعة ماتو خنق وأربعة بحالة خطرة

حمصي ماشي بالشارع بالليل لاقى لوحة معلقة على عامود الكهربا مكتوب عليها بيت للإيجار ومرسوم سهم...فصار يدق عالعامود ويدق ويدق ويدق

مر من جنبه حمصي تاني قام سأله خير شوفي؟
قلو: كاتبين بيت للإيجار وبدي استأجر بس ما حدا عم يفتحلي
رد التاني: والله غريب كيف ما حدا عم يرد مع إنه الضو شاعل

واحد حمصي بياكل بأيدو اليسار قالوله الشيطان بياكل معك قام راح حط سم بالأكل.

واحد من أهل حمص قرر ان يغزو الشمس بصاروخ، قالو له بس الشمس حارقة، فعمل رحلتو بالليل.

حمصي كرماوي بالقهوة قال للكرسون جبلي واحد قهوة وسط واتنين هجوم

حمصية قالها أبوها إجاكي أخ صغير قالتو : بذمتك؟..
لا تقول لأمي...خليها مفاجأة !

حمصي ضرب رفيقو كف.. سألو هادا جد ولا مزح؟.. قلوا جد
فجاوبو: منيح لأني ما بتحمل هيك مزح

مجموعة حماصنة أخترعوا باص بالعرض ليش؟
مشان يركبوا كلهن قدام

حمصي طلع على الطابق الأول ناوي ينتحر شافه أخوه وقله شو عم تساوي عندك جاوبه بدي أنتحر قله أخوه يلي بدو ينتحر بيطلع على آخر طابق جاوبه شو بدك تموتني

ليش الحماصنة بيطلعوا وجسمون مليان حبوب من الحمام؟ لأنو بيستعملوا صابون النحلة

حمصي دخل لعند السمان قله عندك بسكوت تبع الخمسة قله ايه... قله بقديش الوحدة

حمصي قالوله الجزر بقوي النظر جاب كيليين وقعد يطلع فيهن

حمصي عملوله امتحان لحاله..... قام طلع التاني

واحد حمصي معصب قالوله طول بالك... قلن: كام متر يعني؟؟؟؟

حمصي شاف لافتة مكتوب عليها مزرعة أبقار
سأل راعي المزرعة كيف تزرعون البقر؟؟
قاله الراعي باستعباط : نرش سكر ويطلع بقر
راح الحمصي ثاني يوم ورش سكر
رجع ثاني يوم شاف النمل متجمعين
قال: محلاهم البقر وهم صغار!!

حمصي داخل سينما لقي مكتوب ممنوع الدخول لأقل من 18
قام جاب 17 من أصحابه مشان يحضروا معه الفيلم

حمصي قرصته حية قعد يضحك ليش؟؟؟؟
طلع معو إيدز

دكتور عيون حمصي شاف إشارة حمراء
نزل من السيارة وحط لها قطرة.

اتنين حماصنة تبنوا ولد صيني صاروا يتعلموا اللغة الصينية مشان لما بيكبر يفهموا عليه

قال في حمصي اشترى سيارة مرسيديس وبدو يجربها على طريق دمشق حمص فلما رجع من التجربة سألوه أصدقاؤه كيف السيارة؟
قلهن بالروحة كانت سريعة أخد معي الطريق ساعة بس اما بالرجعة اخدت سبع ساعات سألوه ليش؟ قالهن الالمان ما حطو فيها الا غيار واحد للرجعة لورا

قال في أربعة حماصنة عم يلعبوا على الطريق السريع وكان أهم شرط باللعبة أنو يلي بيندعس مرتين يطلع برا.

ليش الحمصي بحط على رأسه خوذة
لأنه يريد أن يبني مستقبله

ليش كل ما بيشوف الحمصي البرق بيضحك؟
بيفكر في حدا عم يصوره

حمصي اشترى جوال عطاه لاخوه وقله اكتبلي رسالة لانه خطي مو حلو

واحد حمصي ماسك قطعة ثلج شافو حمصي تاني وقله وين صافن قله انشالله موت بس اعرف من وين قطعة الثلج مبخوشة

في واحد حمصي دق ع الاستعلامات سأل الموظفة :اديش رقم الاطفاء قالتلوا ثلاث تسعات 999 قال الحمصي انا عندي تسعة وحدة فقط، قالت الموظفة انت حمصي شي قال انتي مركبة كاشف ومالي خبر

في واحد سأل حمصي قلو اذا عرفت شو داخل الكيس راح اعطيك سمكة قال الحمصي سهلة بحر !!

حمصي واقف امام الثلاجة وشايل بايدو سكين ليش؟
بدو يعرف مين عم يشغل اللمبة

واحد حمصي رجع من السفرشاف في بيتو صراصير راح غير القفل!!!

اثنين حماصنة ركبو عالبسكليت صارو يتقاتلو مين راح يقعد جنب الشباك

مجموعة علماء حماصنة قرروا يعملوا أبحاث على ضفدع آم قطعوا له أول رجل وقالوو نط آم نط آم قطعوا تاني رجل وقالوو نط آم نط آم قطعوا ايدو وقالوا له نط آم نط قطعوا له الإيد التاني وقالوا له نط آم ما نط فكتبوا ملاحظة: إذا قطعت الرجل الرابعة للضفدع فإنه سيفقد حاسة السمع.

حمصي وحموي وشامي تراهنوا مين يجيب الكنز من مغارة بيحرسها حمار. راح الحموي وقال للحمار: ياعيني يا روحي... فرفسو الحمار.

راح الشامي ونفس الشي رفسو الحمار. راح الحمصي وبعد نصف ساعة رجع ومعو الكنز. سألو الحموي: كيف جبتو؟ ألو الحمصي: كلمة مني كلمة من الحمار طلعنا أرايبين.

حمصي سافر لحلب شاف واحد حلبي محمل خيار على الحمار وعم وعم يصرخ تعو ودعووووووا بعد دقيقتين قدر يبيع كل الخيار قام الحمصي سافر لحمص وعمل نفس الشي بس لما صار يصرخ تعوا ودعووووووا اجوا الحماصنة وصاروا يبوسو الحمار.

اميركي والماني وحمصي حكم عليهم بالإعدام...

سالوا الأمريكي: بماذا تريد ان نعدمك بالمقصلة الكهربائية ام بالسيف؟ فقال بالمقصلة. فلم تشتغل المقصلة فافرجوا عنه. سالوا الألماني: بماذا

تريد ان نعدمك بالمقصلة الكهربائية ام بالسيف؟ فقال: بالمقصلة... فلم تشتغل المقصلة فافرجوا عنه. سألوا الحمصي: بماذا تريد ان نعدمك بالمقصلةالكهربائية ام بالسيف؟ فقال بالسيف. فصرخ عليه الناس: اطلب المقصلة الكهربائية.. فقال: يا هبلان المقصلة مانا شغالة مانا شغالة!!

سألو حمصي ليش نشره الاخبار اليوم طويله قالن : يمكن اليوم اخر حلقه.

كان البرازيل يلعب مع الكرامة وفي الشوط الثاني أخد البرازيل ضربة حرة ، وروناldوا بدو يشوط الطابة قام الكرامة شكلو حائط دفاع بس بالمقلوب

قال الحارس : ليش دايرين وشكون لعندي ديرو لعند روناldو

قالولو : شو بدك تشوف الكوول لحالك

حمصي سألوه مين برأيك أهم الشمس ولا القمر، قال القمر طبعاً، قالوله ليش، قال لأنه القمر بيطلع بالليل وبيعطينا ضو أما الشمس بتطلع بالنهار والدنيا ضاوية أصلاً.

(على هامش الحرب الأميركية على طالبان) قصة واقعية قام بها طلاب إحدى المدارس الثانوية في مدينة حمص، حيث أرسلوا إلى مدير مدرستهم مظروف، وعندما فتحه وجد داخله مسحوق أبيض اللون، ورسالة جاء فيها: «مع تحيات بن لادن» فأصيب المدير بالذعر، خوفاً من الجمرة الخبيثة التي سمع الكثير عنها في وسائل الإعلام، لكن المسحوق لم يكن إلا بودرة أطفال.

الحماصنة عملوا مظاهرة للاحتجاج على سياسية الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش لبسو واحد منهم بوش وحرقوه

في 3 حماصنة يريدون أن يدخلوا إلى حفلة أم كلثوم وليس لديهم تذاكر فراحوا لعند الجابي أم قال الأول: أنا القصبجي فوّتني وقال الثاني: أنا السنباطي فوتني، صفن التالت شوي وقلو للشرطي أنا كلثوم بدي أمي.

ضابط بالجيش عم يئول للمجند الحمصي لك هي تالت مرة هالشهر عم تطلب اجازة مني وكل مرة بتقول انو جدي رح يموت ئللو المجند الحمصي: ايه والله يا سيدي وانا بلشت شك انو جدي عم يكذب.

سأل أمريكي حمصي: بتعرف تسبح؟
الحمصي: لا ما بعرف..
الأمريكي: اذا الكلب أفضل منك لأنه يعرف يسبح.
سأل الحمصي الامريكي: أنت بتعرف تسبح؟
قال الامريكي: نعم أعرف أسبح.
قال الحمصي: إذا مافيه فرق بينك وبين الكلب.

ما هي الحالة الوحيدة التي يطلب الرجل الحمصي فيها من زوجته تناول العشاء في ضوء الشموع؟
ج - عندما تنقطع الكهرباء

مدرس يسأل طالب حمصي : الثعلب بيولد ولا ببيض؟ قلو: شوف أشتاذ والله الثعلب خداع ومكار.. إتوقع منو كل شي.

اثنين حماصنة كانوا عم يلعبوا شطرنج، وعلى قد ما طولت المباراة معهم مات الملك بجلطة..

حمصي يقول لأبوه: بابا، بدّي اكمّل دراستي برّا..... قال له أبوه: ما عندي مشكلة يا حبيب البابا، هلأ بخلي امك تفرشلك بالجنينه، بس انتبه من البرد

حمصي أحترق دكانه... سألوه : انشالله ما خسرت كثير؟؟ قال : لا.. كنت عامل تنزيلات

حمصي سأل واحد : تتوقع شو بصير لو دوران الأرض صار أسرع ثلاثين مره عن الدوران الطبيعي؟؟؟ قال : بصراحه ما بعرف، قال الحمصي : يصير ناخذ الراتب كل يوم يا غبي..

مذيعة عملت مع إثنين حماصنة مقابلة: قالت للأول ماذا تعني لك سوريا؟؟ قال تعني لي أمي قالت للثاني ماذا تعني لك سوريا؟؟ قال عيب انا مابحكي عن ام صاحبي..

هندي عم بيحضر دفن ميت بحمص...الهندي بيسأل الشب الحمصي اللي جنبه.. نحنا إحرق انتو ليش إدفن؟؟....رد عليه الشب: نحنا ادفن الله إحرق....

سأل المعلم طالب حمصي السؤال التالي: «ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟» جاوبو: «أتمنى أن أصبح خبيرا روسيا يا أستاذ!!!»

حمصية بدا تشوف حالا انو شترت جزمة جديدة من عند ماركة مشهورة، سألوها من وين شتريتيا، صفنة شوي وقالتلهن: والله اشتريتها من عند مكدونالد.

حمصي أول مرة بشوف جسر قال الله يخلليلنا هالحكومة رافعة الشوارع من بين ايدين الأولاد.

حمصي... دقوا عليه الجيران في الليل وقالوا له: الميه مسمّمه لا تشربوا، فصحيت مرته وسألته: شو في؟ رد عليها: ولا شي، اشربي ميه ونامي..

بصارتين حمصيات شافو بعض بالشارع.... قالت الأولى للثانية: إنتي منيحة أنا شلون؟؟؟

حمص

2000/12/1

2004 /1/29

دمشق

2008/10/17

هولندا

2015/7/2

ملاحق

ملحق 1

العاصمة العالمية للضحك:
حمص مدينة الموت والحياة[1]

قبل عام ونصف أطلقت حملة لإعلان «حمص عاصمة عالمية للضحك»، حقيقة لاقت الحملة صدىً إعلامياً وتفاعلاً منقطع النظير، كنت على الدوام أؤمن أن مدينة تمتلك إرادة الحياة فإنها حكما تمتلك إرادة الموت، وعندما يمتلك شعب إرادة الموت وتبقى سلطته عاجزة عن استيعاب هذه الإرادة فإن دروس التاريخ تعلمنا أن هذا الشعب سيحقق وعد الحياة ويصنع مستقبله، تماما كحبة القمح التي يهدينا موتها بيدراً.

أقسم أن الشهيد يبتسم

اليوم تختلط إرادة الموت والحياة على تراب هذه المدينة العظيمة، نجد حمص المضرجة بالدم والألم ترسم ابتسامة على فمها لتقول: الحياة جميلة كالموت. هذه الفكرة كانت تجول في خاطري عندما كنت أرى ثوار

(1) جورج كدر ـ صحيفة القدس العربي 2011-12-18. مقال كتبته بعد أشهر اندلاع الثورة السورية، إثر الدمار الرهيب الذي تعرضت له المدينة.

المدينة يتبادلون على هواتفهم الخليوية صورة الشهيد ويراهنون بعضهم البعض على أن الشهيد يبتسم وهو في طريقه إلى جنة ربه، يتأملون ملياً وجهه الذي خاض الألم وعذاب السجّان ورصاص البنادق والمدرعات ليؤكدوا لأقرانهم أن الشهداء يموتون وهم يرسمون ابتسامة، كان جسدي ولا يزال يقشعر كلما حضرت هذا المشهد، كنت حائراً أمامهم تعاجلني الدمعة وهم فرحون، سلمت أخيراً بأن لهم لغتهم الخاصة، لهم أفراحهم وأحزانهم، حتى ألمهم مختلف عن ألمنا، لذلك كان موتهم مختلفاً... حقيقة لكل شهيد في حمص موت أسطوري..

أسطورة حمص

الآن تصنع أساطيرها، تصنع بطولاتها، آخر ما سمعته، أن أباً دُعي إلى المشفى لاستلام جثة ولده، وعندما فتح له براد الموتى لاحظ أن طفلاً بالقرب من جثة ابنه المتوفى فيه بضعة أنفاس تحطم صمت الموت، امتلك الوالد المفجوع إرادة أن يدع ولده في غفوته الأخيرة ليؤكد أن صاحب الأنفاس هو ولده وليس الولد الميت، يقال: إن الوالد المفجوع أسعف الولد ليبث فيه الحياة.

لا يهم إن كانت القصة حقيقة أو أسطورة، فما سينقله التاريخ عن هذه المدينة الأسطورة سيكون حافلاً أكثر من أي وقت مضى.

نُكات الموت والحياة

حمص المشغولة هذه الأيام في إضرابها لم تنسَ أن ترسم على شفاه عشاقها الابتسامة. آخر النكات التي أطلقها أهل المدينة لها علاقة بمستجدات الأحداث عندهم تقول:

إن إضراب الكرامة فشل فشلاً ذريعاً في حمص، لأن أهل حمص خرجوا عن بكرة أبيهم ليتأكدوا بأم أعينهم من نجاح إضرابهم.

في حادثة تحمل كل معاني الموت والحياة، دخلت مجموعة من ثوار المدينة بعد أشهر قليلة من اندلاع الاحتجاجات في المدينة وبعد انتشار الحواجز العسكرية بكثرة، إلى مقبرة الكتيب المشهورة في المدينة وارتدوا لباس الأموات وضرجوا أثوابهم بالدم وقفزوا عند ساعات الفجر الأولى من سور المقبرة على الحاجز الأمني الكبير وهو ينادون «الشعب يريد إسقاط النظام» تردد صدى هذه الحادثة في كل أرجاء المدينة.

وهناك نكتة تروى أن حارس مقبرة حمصي أراد أصدقاؤه أن يخيفوه، فارتدوا الأكفان وخرجوا في مظاهرة وهم يرددون «الأموات يريدون إسقاط النظام» فحمل الحمصي عصاه وطارد الأموات وأخذ يضربهم وهو يصرخ: «ع قبرك انت وياه ولك».

أهل حمص زرعوا زيتون فلسطين وابتكروا الحساب

قال أهل السيرة فيما روى ياقوت إن: حمص بلد مشهور قديم... وزيتون فلسطين من غرسهم، وقال الحميري صاحب الروض المعطار وعنه نقل القلقشندي في صبح الأعشى: **يقال إن أهل حمص أول من ابتدع الحساب في سالف الزمن، لأنهم كانوا تجارا يحتاجون إلى الحساب في أرباحهم ورؤوس أموالهم ونفقاتهم.**

وفي النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي، نقرأ للشاعر والجغرافي اليوناني أفينوس، وصفاً لروائع أذهلته عند زيارته حمص، يقول:

من الجهة التي تخرج نيران النهار من مهدها، ترفع حمص رأسها المجلل بالضياء. أما جوانبها فتمتد بعيداً على الأرض في كل اتجاه، بينما ترتفع أبنيتها حتى تلامس عنان السماء.

ويبدي سكان المدينة ذكاءهم بممارسة كل أنواع الدراسات الجادة التي يندفع إليها شيوخها بحماسة أكبر.

في عالم الدين

كانت حمص صاحبة ثاني ديانة شمسية عرفها العالم بعد الأخناتونية وفيها كان معبد إله الشمس الحمصي الذي عبده الرومان عندما حكمت أسرة باسيانوس الحمصية روما أواخر القرن الثاني وأول القرن الثالث الميلادي، هذا المعبد الذي تحول إلى كنيسة ثم إلى جامع مشهور هو الجامع الكبير كما تقول بعض الروايات. في حمص أيضا كنيسة أم الزنار وفيها الزنار الذي كانت ترتديه العذراء مريم أم السيد المسيح.

ويقول ياقوت إن في حمص مزارات ومشاهد كثيرة منها مشهد للإمام علي بن أبي طالب، فيه عمود يقال إن عليه موضوع إصبعه، وفيها دار خالد بن الوليد وقبره، ومسجده شهير معروف. وفي حمص قبور لعشرات الصحابة والأولياء.

كعبة القصف

أما الوجه الآخر لهذه المدينة فهو حافل بطيبات هذه الدنيا، خمرها إلى اليوم من أشهر الخمور وخضرتها كذلك، فهي «كعبة القصف/ اللهو» كما يصفها شعر أورده الأبشيهي في مستطرفه:

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت

يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي

بـهـا روضـــة مـن حسنها سندسية
تعلق فـي أكـنـاف أذيـالـهـا العاصي

ويروي ياقوت الحموي في معجمه حادثة عن أبي نواس أشهر ماجني العصر العباسي أنه لما انصرف من مصر، طالبا لقاء ديك الجن الشاعر الحمصي الشهير وأستاذ أبي تمام اجتاز النواسي حمص «فرأى كثرة خماريها وشهرة الشراب فيها وترك كتمان الشاربين لها شربها فأعجبه ذلك فأقام بها مدة مغتبطاً ومصطبحاً، وكان بها خمار يهودي يقال له: لاوي، فقال لأبي نواس: كيف رأيت مدينتنا هذه، وحالنا فيها، فقال له: حدثنا جماعة من رواتنا أن هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لبني إسرائيل، فقال له الخمار: أيما أفضل عندك هذه الأرض أم قطربل؟ فقال: لولا صفاء شراب قطربل، وركوبها كاهل دجلة ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها.

يقول ابن الفقيه الهمذاني [318 هجري] في كتاب البلدان: إن «مدائن الجنة أربعة: حمص، ودمشق، وبيت جبرين، وظفار اليمن».

الجنون استراتيجية عسكرية

حمص المدينة التي كانت العصيّة كحال عاصيها، يحدثنا التاريخ فيما يحدثنا عنها أنه عندما قدم إليها تيمورلنك حاملاً معه الموت القادم إلى الشرق، واجهته المدينة بكل ما أوتيت من حياة، تخيلوا مدينة خرج أهلها يدعون الجنون ويضربون على الطناجر والطبول، يرتدون ثيابهم بطريقة عجيبة ويأتون العجائب من الحركات ليفهم عدوهم أن بهم لوثة، بالتوازي مع ذلك بث أهل حمص إشاعة أن مياه هذه المدينة تصيب من يشربها باللوثة والجنون، لم يصدق تيمورلنك هذه الأمر فأرسل عسسه ومخبريه

ليراقبوا تحركات أهلها عن كثب، عاد عسسه ليؤكدوا الإشاعة، وكانت حمص هي المدينة الوحيدة التي نجت من بطش هذا الطاغية الذي زرع الدمار والموت أينما حل تماماً كأسلافه من التتار.

ما فعله أهل حمص بتيمورلنك ليس حكاية تروى لتبرير مقولة إن لأهل حمص يوما في الأسبوع يحتلفون فيه بجنونهم وهو يوم الأربعاء، بل على العكس تماماً نحن أمام خطة عسكرية محكمة لم ينفذها جيش مدرب وإنما أهل مدينة بأكملها، هي خطة عسكرية تستحق أن تدرس في كتب العلوم العسكرية، وليس كرواية ترد في كتب الطرائف فحسب.

حمص مقبرة العقارب والحيات

قدر حمص أن تكون «عاصمة الموت» و«عاصمة الحياة»، قال ياقوت ذات تاريخ من أخذ من طين أرض حمص لن يلدغه عقرب ومن لدغه ومزج طينها بالماء يبرأ لوقته.

ويقول صاحب الروض المعطار في خبر الأقطار: حمص مطلسمة لا تدخلها حية ولا عقرب ومتى أدخلت على باب المدينة هلكت على الحال.

حمص سليلة المدن العظيمة التي إن عشقت فارسها منحته موتاً أسطورياً يليق به لتخلد ذكره أبداً..

ستداوي هذه المدينة جراحها وستدفن شهداءها كما يليق بموتهم ثم ستنبعث عابقة بالحياة، فهي المدينة التي سكنها ذات تاريخ أبو الطب، حكيم اليونان الشهير أبقراط.

هذا هو السر الذي يجعل من حمص «عاصمة للثورة السورية» و«عاصمة الضحك العالمية».

ملحق 2

قراءة نقدية لكتاب النكتة الحمصية

«أدب النكتة»: بحث في جذور النكتة الحمصية يصيب بسهامه صراعات التاريخ الإسلامي!

بقلم الناقد السوري محمد منصور القدس العربي 2009/5/12

في كل بلد من بلدان العالم، ثمة مدينة يُقدم أبناؤها ككبش فداء في حروب النكتة وإرساء قواعد الضحك الشعبي... ويغدو اسم هذه المدينة، مرادفاً لكل حالة مضحكة، وحاملاً لكل فكرة كاريكاتورية يبحث أصحابها عن مناخ ملائم لتحويلها إلى نكتة سائرة.. وغالباً ما تُتخذ المدن ذات الطبيعة الجافة، أو المزاج الحاد الذي ينطوي على خصوصية اجتماعية أو ثقافية مختلفة، كحامل للنكتة ومروج لها... إلا أن الحال في سورية يبدو غريباً بعض الشيء... فمدينة (حمص) التي أصبح أبناؤها ضحية للنكتة، هي أكثر بيئات سورية انفتاحاً ووسطية واعتدالاً... وسكانها من أكثر السوريين لطفاً ودماثة... الأمر الذي يجعل ارتداؤها لثوب النكتة، أمراً مثيراً للاستغراب!

ولكن يبدو أن الذاكرة الشعبية والزمن وتقلبات الحياة الاجتماعية عبر العصور، قد ساهمت في تكريس دور مدينة (حمص) الفكاهي في النهاية؛ فاشتهر أبناؤها بأنهم رواة نكتة، وضحايا للنكتة التي يرويها الآخرون عنهم أيضاً... وكتاب: (أدب النكتة: بحث في جذور النكتة الحمصية) للزميل الإعلامي جورج كدر، ابن مدينة حمص... والصادر عن دار رسلان بدمشق، في طبعته الأولى 2009... يسعى لتتبع جذور النكتة الحمصية في التاريخ والأدب والحياة... إلا أنه يسلك مسالك شديدة الوعورة والتعقيد... وخصوصاً حين يغوص في وحول العصبيات الدينية والقومية، وتشكل ما بات يعرف بالفتنة الشيعية- السنية، منذ عهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصراعه الشهير مع معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية في الشام!

مقدمات تاريخية إشكالية!

رغم تحمسي الشديد لهذا الكتاب، وطريقة البحث الموسوعي التي اتبعها المؤلف لتتبع جذور النكتة الحمصية، إلا أن المقدمات التاريخية التي ينطلق منها، تحمل الكثير من القيم المرفوضة والمغالطات التاريخية الواضحة... أما ما قصدته بالقيم المرفوضة، فهي الحديث عن الفتن والصراعات الطائفية، بشكل فج ومثير للأحقاد، من دون مراعاة للحساسيات التي يمر بها عالمنا العربي اليوم، وأما المغالطات التاريخية، فهي اعتماد بعض المصادر التاريخية التي تعبر عن وجهة نظر معبئة بحديث الفتنة... وأصحابها لا يملكون المصداقية التاريخية التي تعبر عن وجهات النظر المعترف بها... وحتى لا نبقى في الحديث المجرد، فإننا نشير بصراحة ووضوح، أنه لا يوجد في أي من أدبيات الطائفة السنة ما أسماه المؤلف (لعن الإمام علي) حتى على لسان معاوية بن أبي سفيان...

وأن جوهر الصراع الذي حدث بعد مقتل عثمان بن عفان، لم يكن اتهام عليٍّ بن أبي طالب بقتل عثمان، كما يشير مؤلف الكتاب هنا، معتبراً جذور النكتة الحمصية تعود إلى الصراع السني الشيعي، فكل كتب التاريخ تذكر أن عليّاً حمل الماء إلى عثمان عندما كان محاصراً في بيته، وأنه أمر ولديه الحسن والحسين بالوقوف على باب بيت عثمان لحمايته... إن جوهر الصراع، كان اتهام الإمام عليٍّ بأنه تهاون في الاقتصاص من قتلة عثمان، وقد أرجأ الإمام عليٌّ هذا الأمر حتى يستتب له الحكم... فاستغل بعضهم ذلك، ولعب عزل عليٍّ للولاة الذين عينهم عثمان، واعتبروا من أقاربه دوراً في هذه الأزمة، وخصوصاً قرار الإمام عليٍّ عزل معاوية من ولاية الشام... رغم أنه لم يكن ممَّن عيَّنهم عثمان، بل هو من الولاة الذين عيَّنهم عمر بن الخطاب!

إذن شتان في هذه الإشارات التاريخية التي يسوقها الزميل جورج كدر كمقدمات أولى لكتابه، بين اتهام الإمام علي بقتل عثمان وهو اتهام خطير... ثم لعنه على المنابر، وجميع المسلمين في الشام وغيرها في تلك الفترة، يعلمون أنه من العشرة المبشرين بالجنة، وأنه أول فدائي في الإسلام، وأنه ابن عم الرسول، ولا يمكن لأي مسلم عاقل يعرف أبسط أبجديات الدين في ذلك الزمن أن يقبل بلعن شخصية على هذا القدر من المكانة الدينية مهما كانت الأسباب سياسية... وبين حالة الدهاء التي استخدمها معاوية برفع قميص عثمان على المنبر، من أجل المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان، ثم تثبيت موقعه كحاكم على الشام!

وبالمقابل لا يعقل أن يخوض الإمام عليٌّ سجالاً - رداً على لعنه على منابر الأمويين - بلعن بعض صحابة رسول الله وأبناءهم على المنابر (كما أورد مؤلف الكتاب) وهو الذي نهى أهل العراق عن لعن أهل الشام لأن فيهم (الأبدال) كما يورد مؤلف الكتاب نفسه... فكيف ينهى الإمام عليٌّ

كرم الله وجهه- عن فعل ويأتي بمثله وهو واحد من رجال القدوة العظماء في تاريخ الإسلام؟!

ويبدو أن الزميل جورج كدر، لم يعِ خطورة بعض الروايات غير الموثقة التي أوردها، من قبيل قوله إن معاوية صلى الجمعة بأهل حمص يوم الأربعاء... إذ كيف يمكن لكاتب الوحي مهما بلغ من الجرأة، أن يبلغ به العبث بحدود الله، حد تغيير موعد صلاة الجمعة لأي سبب كان، في زمن غير بعيد من عصر النبوة، وفي دولة كانت تحكم باسم الدين، ويقاتل جيشها ويفتح الأصقاع من أجل نشر هذا الدين... وإذا كنا نقبل هذه الواقعة حين يوردها المؤلف كرواية شعبية شائعة، لا يعرف من أطلقها، فهل يمكن أن نقبل بها كواقعة تاريخية محققة وموثقة؟!

حمص وتيمورلنك: أصل النكتة!

لا أريد أن أستفيض في الوقوف عند ما حفلت به هذه المقدمات التاريخية من تسرع واستسهال في البحث التاريخي، فحتى (مروج الذهب) للمسعودي، لا يخفي عداءه للأمويين شأنه شأن كل المصادر التاريخية القديمة... ويبدو أن المؤلف استقى صورة الأمويين من بعض كتب التراث التي كتبت في عهد العباسيين، وكانت تعتبر شتم الأمويين وإلصاق أسوأ الألقاب والنعوت بهم، أمراً مرحباً بهم، إن لم يكن مشجعاً بصراحة، وهو ما أدى إلى تسويق صورة تتناقض مع أبسط أبجديات الدين الذي كانت أوامره ونواهيه عاملاً أساسياً في صناعة ذلك التاريخ!

وعلى أية حال، يبدو أن هذه المقدمات التي انطلق منها المؤلف، ما هي إلا مدخل للولوج إلى عالم آخر، وليست مقصودة بحد ذاتها... وأعتقد أن قيمة هذا الكتاب هي في بحثه التالي بعيداً عن فرضية أن النكتة الحمصية

هي نتاج الصراع السني الشيعي، التي لم يستطع رغم كل ما أورده وجمعه من روايات أن يقنعنا بها!

وأهمية البحث تبدأ في رأيي فيما قاله المؤلف تالياً، وخصوصاً حين يوضح أن تاريخ النكتة الحمصية يتألف في قسمه الأعظم من التاريخ الشعبي الذي عاش حراً طليقاً لكونه بعيداً عن تاريخ السلطان... وهذا ما يجعل تاريخ النكتة الحمصية قائماً على قدر كبير من الغموض، وخصوصاً أنه ينقسم إلى قسمين: الأول هو (الرواية الشعبية) والثاني هو (المصادر التاريخية).

ولعل أبرز الروايات الشعبية التي تروى عن أصل النكتة الحمصية، وعن دواعي اتهام أهل حمص بالحمق والجنون، الأمر الذي جعل الحمصي شخصية نمطية جاهزة لكل النكات... هو أنه عندما اجتاح تيمورلنك بلاد الشام كانت المدينة الوحيدة التي سلمت من أذاه هي حمص، لأن سكانها تظاهروا بالجنون في الشوارع، وعلقوا على رؤوسهم القباقيب، وأخذوا يقرعون على الصحون النحاسية، وأشاعوا أن مياه العاصي تصيب كل من يشربها بالجنون.. وهذا ما جعل الجيش الجرار الذي يرافق تيمورلنك يمر مروراً سريعاً بحمص... وقد حدث ذلك يوم الأربعاء فاعتبر هذا اليوم هو (عيد الحماصنة) وبعبارة أخرى: عيد الجنون الحمصي الذي تروى عنه النكات!

ويوضح المؤلف في موضع آخر- أن صراع العصبيات المحلية في سورية، أخذ يتحول من طابعه العصبي إلى مزاح وتسلية منذ فترة طويلة وتحديداً بعد عصر الهزل الذي ساد العصر العباسي، ويمكن القول إن ذلك حدث بعد أن اندملت جراح السوريين، مما ألحقه بهم تيمورلنك، ولاحظنا الطابع الهزلي لهذه المصيبة التي حلت بأبنائها للتخفيف من وطأتها على الذاكرة الجمعية.

حمص وحماة: أسرار الجوار!

تعتبر العلاقة التناحرية بين مدينتي حمص وحماة، المتجاورتين على مجرى نهر العاصي في وسط سورية، من مرتكزات النكتة الحمصية... فقد استخدم أبناء حماة، النكتة لإذكاء روح الدعابة والهجاء مع أخوانهم الحمصيين... إنما من دون أن تفسد النكتة للود قضية... وكان من الطبيعي لأهالي حماة المشهورين بالجدية الزائدة والالتزام الديني الذي يصل حد التعصب أحياناً... أن يرووا الدماثة والوسطية والميل للمرح لدى جيرانهم الحماصنة مدعاة للتنكيت... حتى تحول الأمر إلى (حرب فكاهية حقيقية). ورغم أن مؤلف الكتاب لا يسهب في الحديث عن هذه العلاقة التي كانت ملهمة للباحثين في فن النكتة الحمصية طويلاً، إلا أنه يقدم لنا صورة مختزلة عن الجذور التاريخية لهذه العلاقة، لما أسماه (الأعداء الحميميين) إذ يروي لنا قصة مسرحها القرن التاسع عشر، عن الشيخ محمد الهلالي الحموي الذي كان ينظم الشعر والموشحات وكان الناس في حمص وحماة شديدي الإعجاب بمنظوماته... الأمر الذي أزعج شيخاً حمصياً هو الشيخ مصطفى زين الدين، الذي كان رجلا أكولاً يعشق أصناف الطعام... وقد تفتق ذهنه الوقاد على طريقة خاصة للانتقام من منافسه الحموي وتسخيف أشعاره... عبر معارضتها بأخرى تتغزل بالطعام... فكان كلما خرج الشيخ الحموي بقصيدة تتحدث عن الجمال والحب والغزل... عارضها منافسه الحمصي بقصيدة على نفس البحر والقافية تتغزل بأطايب المأكولات والأطعمة... ويورد جورج كدر، مثالا طريفاً في هذا السياق، إذ يقول الشيخ الهلالي الحموي:

يـا بـدر حسـن كـم سـهـرت أراقـبـه
والـلـيـل مـالـت لـلـغـروب كـواكـبـه

مـا مـن كليم الـوجـد أنـت مصاحبه
إلا ومـغـنـاطـيـس حـسـنـك جـاذبـه

أما الشيخ الزيني الحمصي فقد عارضه خصمه الحموي بالقول:

يـا صـدر بصما كـم بـرزت أحـاربـه
والـقـطـر طـابـت لـلـنـفـوس مشاربه
مـا مـن أرز والـلـحـوم تصاحبه
إلا ومـغـنـاطـيـس بـطـنـي جـاذبـه!

حمص وعيد المجانين: أصول مندثرة!

لعل أهم فصول الكتاب، وأكثرها إضافة لجهد جورج كدر في توثيق وتتبع جذور النكتة الحمصية هو الفصل الذي تحدث فيه عن عيد المجانين المندثر، إذ يشير هنا أن أهل حمص كانوا يحضرون لأعياد الربيع القديمة يوم الأربعاء الذي هو يوم شؤم لدى العرب... ولهذا لا يمكن عزل ما يشاع من وسم الحمصيين بالجدبة (العته) وأنه لهم يوم في الأسبوع يحتفلون فيه (بجدبتهم) هو يوم الأربعاء (عيد المجانين) سواء كان ذلك بهدف التسلية أو الجد، عن تاريخ المدينة بشكل عام والأعياد التي تقام بها أمثال: (خميس الضايع- أي التائه- وخميس الشعنونة، وخميس المجنونة، وخميس القطط وخميس البنات، وخميس الأموات وخميس المشايخ)... أما عيد المجانين (خميس المجنونة)، فقد كان موجوداً كإحدى احتفالات أعياد الربيع، وكان اليوم الذي ينقلب فيه النظام الاجتماعي تماماً وكان يشتمل على تصرفات الإباحية، دعت كل من رآها من التجار أو الرحالة أو المسافرين إلى اعتبارها سلوكيات شاذة فاعتقدوا أن في هذا الشعب لوثة!

وصورة مقاربة لهذا العيد يوردها مؤلف الكتاب في حديث أحد

المؤرخين عن (خميس المشايخ) في حمص... حيث يركب مشايخ الطرق الصوفية الأكاديش ويتظاهرون وهم عليها، بالبله والاسترخاء، وإسالة اللعاب في الأفواه ويتبعهم مريدوهم.. وكان هؤلاء المشايخ قبلا يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف، وأكل النار والزجاج، وضرب السفود والاتكاء على السيوف، والدوس بأكاديشهم على ظهور الرجال الممدين، وغير ذلك مما ينكره الدين ويمجده العقل السليم!

ويبدو أن عيد المجانين قد تلاشى تدريجياً بفعل التشدد المتزايد في المواقف الاجتماعية، ومن المتوقع ألا نجد عنه في أيامنا كما يشير المؤلف- إلا أثراً مبهماً على شكل تسمية فقدت معناها... وإن لم تفقد تجلياتها في العمق الحقيقي لجذور النكتة الحمصية!

إن كتاب (أدب النكتة بحث في جذور النكتة الحمصية) هو جهد أكاديمي دؤوب، يتوخى فك أسرار هذه الحرب الفكاهية على مدينة حمص وأهلها، عبر الإيغال في أتون الصراعات الدينية والسياسية ومحاولة تأويلها، وفي بطون كتب التاريخ والمثيولوجيا والأديان ومحاولة استنطاقها... ولكن بسبب هذا الاهتمام بتلك الجوانب، نراه يغفل محاولة استقراء الواقع الاجتماعي اليومي المعاش، الذي يشكل المختبر الحي لتلك النكتة... صحيح أنه يجمع لنا عشرات الطرائف الحديثة التي تروى عن حمص والتي تنتشر على مواقع الانترنت... وهذا قد يعطي مؤشراً هاماً على حركة الواقع الاجتماعي في تفاعله مع النكتة اليوم... لكن هذه النكات، كان يمكن أن تشكل مادة لأفكار تحليلية وبحثية يمكن أن تغني صورة الكتاب!

إلا أن هذا كله أو أية ملاحظة أخرى... لا ينفي أن جهد جورج كدر، يمثل إضافة هامة لموضوع شيق وطريف، تمت معالجته بقدر عال من

الوضوح والجاذبية الفكرية واللغوية... وقد عبر جورج كدر عن حبه لمدينته حمص بهذه الطريقة البحثية التي أبرزت جانباً من جوانب فرادتها في الذاكرة الشعبية وفي الأدب الضاحك... وربما عبّر عن الشخصية المنفتحة البعيدة عن جذور وأهواء التعصب، حين اختار لغلاف هذه الكتاب، لوحة كاريكاتير للفنان السوري علي فرزات ابن مدينة حماه التي لطالما شنت حرباً فكاهية على جارتها حمص، متهمة أهلها الظرفاء والنجباء بالهبل الجميل!

ملحق 3

حول الاهتمام الإعلامي بحملة إعلان حمص عاصمة عالمية للضحك

حمص السورية... «عاصمة عالمية للضحك»[1]

وكالة الصحافة الفرنسية (أ ف ب)، وسيم ابراهيم

الجمعة، 20 مايو 2009

دمشق - أ ف ب - «أُجْريت لحمصي عملية جراحية ناجحة، فقرر إجراءها مرة ثانية». هذا نموذج عن النكات التي تلاحق أهالي مدينة حمص عبر التاريخ وأوردها كتاب عن «النكتة الحمصية» التي تحولت وسيلة تعبير مأمونة لنقد المجتمع السوري.

ويسبر الصحافي والكاتب الحمصي جورج كدر الخلفيات التاريخية للنكتة الحمصية في كتابه «أدب النكتة: بحث في جذور النكتة الحمصية»،

(1) نشر هذا التقرير في العديد من وسائل الإعلام العربية، ومنها صحيفة الحياة اللندنية الجمعة، 22 مايو 2009، وقد تم تغطية الحملة على قناة العربية السعودية وموقعها الالكتروني، وقناة روسيا اليوم، وفرانس 24 اضافة لموقعها الالكتروني.

مبيناً ان صفة «الجنون» لم تكفّ عن ملاحقة أهل حمص منذ أيام العبادات الوثنية.

ويقول المؤلف في كتابه إن التندر على الحماصنة والسخرية منهم أخذ في الماضي البعيد شكل نوادر وقصص زخرت بها كتب من زارها من الرحالة والكتاب، وأشهرهم الرحالة ياقوت الحموي وابن الجوزي الذي قال عنهم انهم «بين الحمقى والمغفلين على الاطلاق». أما اليوم فيأخذ هذا التندر أشكالاً مختزلة ومكثفة صارت شبكة الانترنت مجالاً خصباً لتناقلها ونشرها.

ويعيد كدر دوافع تأليفه الكتاب الى أيام انتقاله الى الدراسة في جامعة دمشق، ويقول: «ما أن يقابلك شخص ويعرف أنك من حمص حتى يسألك: ما آخر نكتة لديك عن الحماصنة». هذا السؤال الذي لا يزال يتكرر على مسامع أهل حمص دفع الكاتب الى البحث والتقصي إن كان «التنكيت على الحماصنة يأتي من فراغ أم أن له امتدادات تاريخية؟».

وللنكتة الحمصية جذور «موغلة في القدم» تصل الى «عيد المجانين» الذي كان موجوداً في العبادات القديمة واندثر، وفق ما يعرضه الكتاب.

كما أن المؤلف يجد أن لها صلات بعبادة إله الشمس في القرن الثالث الميلادي والتي كانت تتم في حمص واتسمت بمظاهر مجون وصخب حتى الهذيان، ما حمل كل من يمر بحمص وقتها على الاعتقاد بأن أهلها مصابون بـ«لوثة جنون».

وحتى اليوم يستخدم السوريون في سخريتهم إحالة دارجة على يوم الاربعاء بوصفه «عيد الحماصنة». وفي هذا السياق، يسلط كتاب «النكتة الحمصية» الضوء على روايات شعبية وتاريخية تحكي كيف تفادت حمص غزو تيمورلنك المغولي عبر استقبال أهلها الحافل له، وتظاهرهم بالجنون ليجنبوا المدينة الدمار.

ومن القضايا التي يؤكد الكاتب تأثيرها في ظهور النكتة الحمصية تلك المتعلقة بالعصبيات القبلية والدينية، إذ يسرد كيف كان أهل حمص «كثيري التقلب في الأمور الدينية»، ما جعلهم في مرمى نوادر جاءت لتكرس «رؤية مسبقة» حولهم او أنها انبثقت من خلفيات «تحامل» بعض الكتّاب والرحالة على أهل حمص، كما يشير الكتاب الذي جاء أشبه بمرافعة مطولة عن أهل المدينة.

ويعلي الكاتب السوري الساخر نبيل صالح من شأن النكتة التي تدخل في نسيج كتابته الساخرة، ويعتقد بأن «النكتة أكثر قدرة من الموعظة على إصلاح العالم».

ويعتبر أن «أهل حمص الأذكياء هم الأكثر تأليفاً وتسويقاً للنكات حول أنفسهم، وهو دليل قوة وثقة وصحة نفسية».

ويروي صالح كيف كان يعبر حمص في الماضي ويلاحظ عبارة على واجهة محل بقالة تقول: «لدينا ثلج بارد».

وبعد سنوات طويلة دفعه فضوله الى دخول المحل والتأكد من «جدبنة» صاحبه كما يقول، الذي أخبره أن العبارة كتبها والده وكانت عاملاً في كسب زبائن استدرجهم فضولهم الى شراء ما لا يلزمهم. وينقل صالح تعليق صاحب محل البقالة الذي قال له: «من الأجدب برأيك: أنا أم الزبون الواقف أمامي».

وعلى غلاف كتاب «النكتة الحمصية» يوقع فنان الكاريكاتور السوري علي فرزات رسماً لرجل حمصي باللباس التقليدي، يقف على تاج عمود تاريخي وقد اخترقت السهام كل جسده، ويبدو الرجل واجماً فيما لم يصب أي سهم التفاحة فوق طربوشه.

أما الكاتب كدر فيعتبر أن النكتة الحمصية تحولت لدى السوريين

«وسيلة مأمونة لنقد الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي»، مشيراً الى أنها «دخلت في الكثير من المحظورات».

ومما يورده الكاتب من نكات جمعها من المتداول على الانترنت حول الحماصنة، تلك التي يذهب فيها حمصي الى ضابط في وزارة الداخلية طالباً الترشح للانتخابات، فيجيبه الضابط «هل انت مجنون؟»، فيرد عليه الحمصي: «وهل هذا شرط الترشح؟».

ويدعو مؤلف كتاب «النكتة الحمصية» في ختام بحثه التاريخي الاجتماعي الى إقامة مهرجان عالمي للفكاهة في حمص التي تعد أكبر المحافظات السورية مساحة، معتبراً أنه بات من الضروري أن تتحول هذه المدينة «عاصمة عالمية للضحك (...) تثور على ما يسود العالم من كآبة وحروب».

تصالحوا مع الضحك!

الإعلامي السعودي تركي الدخيل صحيفة الوطن 27-05-2010

هل تدركنا حالات مللٍ من الحديث عن القضايا الكبرى؟ ألا نستحق شيئاً من الترفيه عبر نشر النكتة والتصالح مع الضحك؟

في كل مجتمع تركّز بعض النكات على فئة من الفئات.

في الغالب ينشأ اختيار تلك الفئة أو المدينة أو المنطقة لرواية النكات بشكل اعتباطي من دون تخطيط أو تآمر، بعض المدن تصالحت مع حالة الاستهداف بالنكتة. اضرب على ذلك مثلاً بـ«حمص» تلك المدينة التي اشتهر أهلها بالنكتة وسرعة البديهة، بل من إبداعات تلك المدينة «صناعة» النكتة.

الحمصيون تصالحوا مع حالة استهدافهم بالنكات. الكثير من النكات الشامية تبدأ بـ«فيه واحد حمصي»، مع أن الحمصيين اشتهروا بالذكاء على عكس ما تغرسه النكات من انطباعات سلبية عنهم. فالنكتة ليست دليلاً علمياً يمكن بناء موقف عليه تجاه فئة أو منطقة.

قبل أيام طالبت مجموعة «أصدقاء النكتة الحمصية» على موقع «فيسبوك»، منظمة اليونيسكو بأن تكون حمص العاصمة العالمية للضحك.

يقول محافظ حمص إياد غزال:«إننا ندرس حالياً تنظيم مسابقة احتفالاً بهذه الحالة الإيجابية التي تميزت بها مدينة حمص، ضمن مهرجان القلعة والوادي الذي سيقام بين 22 يوليو (تموز) و5 أغسطس (آب) المقبل».

ويضيف: «النكتة حالة من الدعابة المحببة لدى الناس، وهي حالة تفاعل مرتبطة بالحياة وتعكس الروح المرحة والمبادرة»، مشيراً إلى أن «الحماصنة اشتهروا في صياغة النكات وإطلاقها على أنفسهم».

قلتُ: كم هو موقف جميل أن نرى الوجه المضيء من كل ظاهرة؛ كان بإمكان الحمصيين أن يثوروا على النكات التي تروى عنهم، لكن احتجاجهم لن يغيّر من الأمر شيئاً، لأن النكتة ليست علماً أو مقرراً أو نصاً شعرياً يمكن منعه أو السيطرة عليه؛ وإنما هي روايات تتداول شفهياً ويتم تداولها كما تتداول الإشاعات والأخبار الخاطئة والفضائح، هي جزء من الحديث الذي لا يدوّن من أحاديث المجتمع. غير أن قبول الحمصيين لهذه الظاهرة وتصالحهم معها هو ما لفت نظري.

قال أبو عبد الله غفر الله له: كنتُ تحدثت عن أن الضحك والابتسامة ونشر روح النكتة هي علاجات الحياة؛ وأن الإغراق في القضايا الكبرى يملّ منه الإنسان أحياناً، فيحتاج إلى الترويح بعد طول عمل، وإلى الضحك بعد طول غضب.

عالم النكتة هو الفضاء الرحب الذي نحتاج إلى التصالح معه، لئلا تتحول حياتنا إلى مجموعة من الكوابيس الزرقاء.

نعم لحمص عاصمة عالمية للضحك!

موقع فرانس 24 بتاريخ 28/ 05/ 2010

تكثر في المشرق العربي النكات التي تتحدّث عن أهل حمص، ثالث أكبر المدن السورية. فغالباً ما يحكى، من باب المزاح، عن سذاجتهم. سمعة تسلّي الحماصنة الذين ينتجون القسط الأوفر من هذه النكات، حتّى أنهم يطالبون اليوم بمنح مدينتهم لقب «عاصمة عالمية للضحك».

أهل حمص لهم تاريخ طويل في ميدان الفكاهة والمزاح!

جورج كدر إعلامي من حمص وصاحب كتاب بعنوان «أدب النكتة». أنشأ قبل أسبوعين مجموعة «أصدقاء النكتة الحمصية لإعلان حمص عاصمة عالمية للضحك» على موقع فايسبوك.

تشهد المجموعة إقبالاً واسعاً وتضمّ حتى الآن أكثر من 5000 صديق. هذا النجاح يفسّره برأيي عاملان: الأول هو محاولة الناس الترويح عن أنفسهم بالضحك في عالم تعصف به الحروب والأزمات الاقتصادية. والثاني مرتبط باشتهار أهل حمص في المنطقة بروحهم المرحة وخفّة دمهم.

فإن كان الفرنسيون يخبرون النكات عن البلجيكيين، والبلغاريون عن

أبناء مدينة غابروفو [وسط بلغاريا]، والتونسيون عن أهالي مدينة سوسة [شرق تونس] ومصر عن أهل الصعيد، فنكت سوريا ولبنان والأردن كما تلك التي تخبرها الجاليات السورية في المهجر تتحدث عن الحماصنة. وأهل حمص لهم تاريخ طويل في ميدان الفكاهة والمزاح وقصصهم مذكورة في أعمال الجاحظ والتوحيدي كما في الروايات التاريخية.

ومن هذه الروايات ما يحكى عن القائد المغولي تيمورلنك الذي هجم على حلب ودمّرها. وعندما سمع أهالي حمص بالخبر وعلموا أن دورهم آت الأربعاء التالي تظاهروا بالجنون وراحوا يقرعون الطبول ويلبسون ملابس غريبة ويقهقهون عاليًا وأشاعوا أن كل من يشرب من مياه العاصي تصيبه لوثة الجنون. فلمّا رأى قائد المغول حالهم أمر بتجنب هذه المدينة الممسوسة والزحف مباشرة على دمشق. وهكذا سلمت حمص، بفضل طرافة أهلها وذكائهم، من بطش هذا السفاح. وبات يخصص الحماصنة كلّ نهار أربعاء لعيد المجانين.

النكتة جزء من التراث اللامادي للشعوب الذي لا بدّ من صونه والحفاظ عليه. لذا أطلقت مبادرة لترشيح حمص عاصمة عالمية للضحك لدى اليونسكو. ولتعزيز حظوظها في الفوز، أدعو إلى الاستثمار في الضحك على غرار إنتاج سلع مرتبطة بالفكاهة، وتشجيع الأدب الساخر وتنظيم مهرجان سنوي للضحك في حمص [ستنظّم ابتداء من هذا الصيف مسابقة للضحك في حمص]. وكي نختم على الطريقة الحمصية، هل تعرفون لماذا يتحسّس الحمصي حرارة المياه بإصبعين بدل إصبع واحد؟ لأن رأيين أفضل من رأي واحد».

مراجع البحث

1. آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني(1203-1283) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت، بيروت 1960
2. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، محمد بن أحمد (335،390 هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1980، تحقيق: غازي طليمات.
3. أخبار الحمقى والمغفلين، الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تنقيح محمد أمين فرشوخ، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر العربي، بيروت.
4. أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني (توفي 1019هـ، 1610م)، المجلد الثالث، دراسة وتحقيق أحمد حطيط، فهمي سعد، الطبعة الأولى 1992، عالم الكتب، بيروت.
5. أخلاق التهكم، د. عادل العوا، دار الحصاد، دمشق، الطبعة الأولى 1989.
6. أدبنا الضاحك، عبد الغني العطري، دار البشائر، دمشق، الطبعة الثانية 1992.

7. الأذكياء، ابن الجوزي، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة، الطبعة الأولى 1988.

8. أعياد الربيع القديمة في حمص، جان إيف جيلون، ترجمة زياد خاشوق، حمص 1977، موافقة وزارة الإعلام 39357/ 3/ 1997.

9. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1990، المجلد 4، الجزء 10-12.

10. الآكدية العربية، د. علي فهمي خشيم، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى القاهرة 2005

11. إله الشمس الحمصي، فرانتس ألتهايم، ترجمة: إيرينا داود، مراجعة فراس السواح، دار المنارة/ السعودية 1999.

12. إمبراطورات سوريات- تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، جان بابليون، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1987.

13. بيان الحد بين الهزل والجد، بو علي ياسين، دار المدى للثقافة والنشر دمشق، الطبعة الأولى 1996.

14. التأسيس لتاريخ الشيعة (2) ستة فقهاء أبطال، الشيخ جعفر المهاجر، الطبعة الأولى-1994م- المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى مركز الدراسات والتوثيق والنشر.

15. تاريخ حمص، منير خوري أسعد، الجزء الثاني، نشرته مطرانية حمص الأرثوذكسية 1984.

16. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د.فيليب حتي، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبور، الجزء الثاني، دار الثقافة بيروت دار الثقافة، 1983م.

17. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، مراجعة د. جبرائيل جبور، الجزء الأول، دار الثقافة بيروت، 1983م.

18. تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الإمام الفقيه المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية السعودية.

19. تاريخ العرب في الإسلام، د. جواد علي، دار الحداثة بيروت 1983.

20. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(449-571 هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت 1995.

21. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، المجلد الأول، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الأولى 1419 هـ.

22. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، المجلدين الثاني، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى 1419 هـ.

23. تاريخ مختصر الدول، للعلامة غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري، المتوفى سنة 685 هـ، دار المسيرة بيروت.

24. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، حققه ووضع خرائطه عبد الهادي التازي مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسة التراث.

25. تقويم البلدان، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بصاحب حماة، طبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة 1850.

26. تونُبي مكّحخوني، (نوادر مضحكة للعلامة مار غريغوريوس يوحنا ابن العبري مفريان المشرق 1222. الكتاب باللغة السريانية) ترجمة الأب يعقوب كامل طحان.

27. تيمورلنك وحكايته مع دمشق، أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، الطبعة الرابعة 1987.

28. جذور ريف حمص، نعيم الزهراوي، دار السلامة للنشر حمص 2003.

29. حديث دمشقي 1884 - 1983، مذكرات 1، نجاة قصاب حسن، الطبعة الثالثة 1992، الحقوق محفوظة للمؤلف.

30. جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، حققه أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1964.

31. جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر تموز 1934.

32. حمص أم الحجارة السود، ساطع محلي، مطبعة دار المنار دمشق 20/ 1/ 1963.

33. حمص دراسة وثائقية في الحقبة من 1840-1918م نعيم الزهراوي ومحمود السباعي، الجزء الأول، حقوق الطبع والنشر والصور والوثائق محفوظة للمؤلّفين.

34. حمصنه، أنطون سابا، Anton-Soba p-o-box 5322 chatsworth-U-S-A 5322-CA- 91313

35. الحيوان، الجاحظ، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، الطبعة الثانية 1965، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

36. دراسات فنية في الأدب العربي د. عبد الكريم اليافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1996.

37. دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، فراس سواح، منشورات دار علاء الدين، الطبعة الأولى 1994.

38. ديوان تذكرة الغافل في استحضار المآكل، جمعه: محمد الخالد الحلبي الحمصي، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، طبعة دار القلم الأولى 1994.

39. ديوان ديك الجن الحمصي، جمع وتحقيق مظهر الحجي، وزارة الثقافة إحياء التراث 73.

40. الذكاء العاطفي، دانييل جولمان، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة 262، الكويت 2000.

41. رحلة ابن جبير، دار صادر- دار بيروت، 1964م.

42. الرقم سبعة في حضارة بلاد الرافدين، الدلالات والرموز، حكمت بشير الأسود، اتحاد الكتاب العرب 2007.

43. السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي، محمد علي دقة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983.

44. السنكسار: سير القديسين الذين تكرهم كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك على مدار السنة- وضعه المطران ميخائيل عساف رئيس أساقفة بترا وفيلادلفيا وسائر شرق الأردن - طبعة ثانية- المطبعة البوليسية حريصا (لبنان) الطبعة الأولى كانت عام 1948.

45. صانعوا التاريخ العربي، د. فيلب حتي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة بيروت 1980.

46. صورة الأرض، ابن جوقل،أبي القاسم بن جوقل النصيبي (ت 367 هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1979.

47. الطفل الرضيع، ديزموند موريس،ترجمة محمد دنيا، دار الإرشاد بحمص.

48. قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد 13- 14، عصر الإيمان، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية الطبعة الثالثة 1986.

49. فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم، وابن سعد، والشقندي، نشرها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، 1968.

50. الفكاهة البلغارية داميانبارنيا كوف ترجمة حسين راجي، منشورات دار الثقافة بدمشق 1982.

51. القرد العاري، ديزموند موريس، ترجمة ميشيل أزرق، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية الطبعة الأولى 1995.

52. كتاب البلدان، ابن الفقيه الهمذاني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني تحقيق يوسف الهادي، بيروت عالم الكتاب للطباعة والنشر، بيروت 1996.

53. ما فوق مبدأ اللذة، سيجموند فرويد، ترجمة د. اسحق رمزي، دار المعارف بمصر ط 2، 1966.

54. معجم البلدان الجزء الثاني، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي الرومي المتوفى سنة 626ه، دار الكتب العلمية، بيروت.

55. مجمع الأمثال، أبو الفضل النيسابوري الميداني، المجلد الأول، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنة المحمدية 1955.

56. المقدس والدنيوي، مرسيا إلياده، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 1987.

57. مروج الذهب ومعادن الجواهر، المجلدين، الثاني، للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم بيروت 1989.

58. مروج الذهب ومعادن الجواهر، المجلدين، الثالث، للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم بيروت 1989.

59. المستطرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين بن محمد الأبشيهي (790-850 هـ)، دار القلم، بيروت 1981، ونفس المرجع، إصدار دار إحياء التراث العربي.

60. معجم آلهة العرب قبل الإسلام، جورج كدر، دار الساقي، بيروت 2013.

61. الميثولوجيا السورية-أساطير آرام، د. وديع بشور، مؤسسة الفكر للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، تشرين الثاني.

62. 1981من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، آذار 1970

63. من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، آذار 1970.

64. من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، المجلد الثالث، دار العلم للملايين، بيروت، آذار 1970.

65. موسوعة الأدب الضاحك، علي مروه، الجزء الأول، طرائف الشعراء والأدباء، رياض الريس للكتب والنشر 1987.

66. موسوعة الأدب الضاحك، علي مروه، الجزء الثاني، طرائف المصريين، رياض الريس للكتب والنشر 1987.

67. موسوعة الأدب الضاحك، علي مروه، الجزء السادس، طرائف الأذكياء والمغفلين، رياض الريس للكتب والنشر 1987.

68. الموسوعة التاريخية الجغرافية، سوريا، مسعود خوند، تشرين الأول 1997،طبع في لبنان توزيع مؤسسة هانياد.

69. مهزلة العقل البشري، د. علي الوردي، دار كوفان لندن، الطبعة الثانية 1994

70. مدارس التحليل النفسي، ترجمة وجيه أسعد، إصدارات وزارة الثقافة دمشق 1992.

17. ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى، د.شاكر مطلق، الجمعية التاريخية، حمص 11 / 1984.

72. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحَسني، عالم الكتب، بيروت 1989، المجلد الأول.

73. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني(992-1041 هـ)، الجزء الأول، شرحه وضبطه وعلق عليه د. مريم قاسم طويل، د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت 1995

74. النكتة الصهيونية، محمد أبو خضور، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1977.

75. النكتة العربية بين الماضي والحاضر، علي ديب حسن،دار المنارة ومؤسسة عبور للطباعة، بيروت 1996.

76. النكتة المصرية، عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت 1948.

الصحف والمجلات

77. إخوان الصفا: قراءة معاصرة، كمال راغب الجابي، مجلة المعرفة السورية العدد 484 كانون الثاني 2003.

78. حمص... رحابة المكان، مرافئ الزمان، العربي- العدد 456- تشرين الثاني 1996 استطلاع د. محمد المخزنجي.

79. استطلاع عن مدينة حماة، مجلة العربي العدد 484، مارس، 1999.

80. أكيتو -.. عيد الربيع البابلي، جذوره، أيامه، عائديتهِ، طلعت ميشو، موقع الحوار المتمدن 2012/ 3/ 25.

81. بيوت القيان، د. نبيه عاقل العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، 1963.

82. حزب البعث وصحفيو حمص، نشرة كلنا شركاء في الوطن عدد 14 تموز 2006.

83. حمص...، استطلاع سليم الزبال، العربي، العدد 52، مارس، 1963.

84. حمص كعبة وحجرها الأسود عبدته روما، مجلة فكر، العدد 108، كانون2 شباط 2010.

85. الدومري- العدد-39- الاثنين 26/ 11/ 2001.

86. جريدة الحياة، الأربعاء 27- 10-1999.

87. لقاء مع المفكر محمد أركون في جريدة السفير، 12/ نيسان/ 2002

88. ملحق السفير الثقافي، الجمعة 15 آذار 2002.

98. «الكرنفال في هولندا استمتاع قبل الصوم، محمد أمزيان، موقع هنا صوتك الهولندي 3/ 2/ 2014.

90. صحيفة تشرين، مقابلة مع رئيس الوزراء محمد ناجي العطري 9 ت/ 2005.

91. النكتة الحمصية من جوليا دومنا إلى يومنا، تقرير نشرته وكالة سانا للأنباء، 15/ 6/ 2008

جورج كدر:

كاتب وباحث وإعلامي سوري، من مواليد حمص 1978. خريج جامعة دمشق، كلية الصحافة. صدر له حتى الآن 12 مؤلفاً في التاريخ والفكر والسياسة والأديان، وله أعمال جديدة قيد الإنجاز. كما عمل صحافياً و مراسلاً لكثير من وسائل الإعلام، وصدرت له دراسات ومقالات في العديد من الصحف والمجلات ومراكز الأبحاث، منها: مركز الجزيرة للدراسات، مجلة فكر، مجلّة الآداب...

حملة نيدابا لدعم التعليم والقراءة

مئات آلاف الضحايا، والمدن المدمرة، ليس الثمن الوحيد الذي دفعه السوريون في الحرب التي أنهكت بلدهم. في ظل غياب المدارس في كثير من المناطق السورية المشتعلة، وفي ظل لجوء مئات آلاف الأطفال مع أسرهم خارج البلاد، تبدو مشكلة التعليم واحدةً من أهم المشكلات التي تواجه السوريين اليوم ومستقبلاً، وخاصة فيما يتعلق بالأطفال السوريين المتواجدين في مخيمات اللجوء في الدول المجاورة.

صنفت الكارثة السورية كأحد أكبر الكوارث الإنسانية منذ الحرب العالمية الثانية، اقتصر الدعم الدولي والإنساني على تغطية الحاجات الأساسية للبقاء من غذاء وتدفئة وطبابة وضمن حدودها الدنيا، وأصبح الإهتمام بالتعليم أو المشاريع الثقافية من ضمن الرفاهيات التي لا يوجد إمكانيات لتغطيتها.

تأتي هذه الحملة من كتّاب ومؤلفين وفنانين سوريين محاولةً لدعم مشاريع تعليم الأطفال السوريين في المخيمات على قلتها، ومحاولةً للفت النظر إلى كارثة مستقبلية لجيل كامل غير متعلم من أطفالنا، ما لم تُعطَ هذه القضية حقها.

قدم المساهمون في الحملة كتبهم وتصاميمهم دون مقابل مادي إلى

دار ممدوح عدوان للنشر، التي تقوم بنشر وتوزيع هذه الكتب، لتعود كامل أرباح هذا المشروع إلى دعم مشاريع التعليم البديلة في المخيمات ودعم مشاريع إنشاء مكتبات في أماكن اللجوء والنزوح داخل وخارج سوريا.

في المرحلة الأولى تم التعامل مع منظمة بسمة وزيتونة ومنظمة ألفابيت للتعليم البديل، ونرغب في توسيع هذا المشروع ليشمل جميع مخيمات اللجوء ومراكز النزوح.

قد تبدو نتيجة هذا الجهد صغيرة بالنسبة إلى حجم الكارثة المحطية بنا وغير كاف لإحداث أثر فعلي على الأرض، لكنه جهد صادق من جميع المساهمين في الحملة، على اختلاف مشاربهم ومواقفهم الفكرية والسياسية، لعلَّنا نستطيع مد أيدينا إلى أطفالنا اللاجئين، وكلنا أمل أن يصلوا بنا يوماً ما بعلمهم وثقافتهم إلى مستقبل أفضل.

تم اختيار اسم نيدابا كرمز للحملة، وهي إلهة الكتابة عند السومريين ويمتد تأثيرها إلى بلاد الشام. في الحرب التي تدور في سوريا،أغلب الفصائل المتقاتلة تستصرخ رموزاً تاريخية في تأجيج هذه الحرب، فكان أن اخترنا رمزاً تاريخياً من منطقتنا أيضاً لكن كي نستصرخ في سبيل دعم التعليم والقراءة.

حملة نيدابا

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

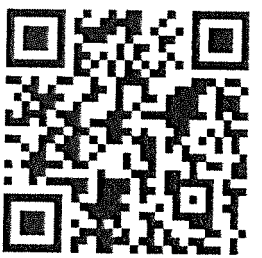

صحيح أن للنكتة أدبيات وقواعد خاصة بها في الأدب الضاحك، لكن الصحيح أيضاً أن لها جذوراً عميقة في حياة الشعوب تحدد الإطار العام لها، فهي بحكم استهدافها لهذا لشعب أو لطائفة منه أو شخص مجهول أو معلوم فيه، تأخذ شكلها العام والحالي متبلورةً من أنواع "فكاهية" تتناسب والعصر الذي وجدت فيه، ويمكن القول: إن المضحك والمبكي، لا يتغير إطاره العام، إنما الذي يتغير آلية تلقيهما.

والحمصي كإحدى الشخصيات البارزة في الأدب الضاحك المعاصر استهدُف منذ البداية ونُعت بالحُمق، لا بل صنّفه ابن الجوزي بين "الحمقى والمغفلين على الإطلاق". وعلى ذلك تركزت النكات على أهل حمص فيما بعد. وللعلم فإن ما وسِم به أهل حمص، بنته أحداث تاريخية مهمة عاشتها المدينة.

لقد خاضت حمص حرباً أيديولوجية فكاهية على مرّ تاريخها، ويبحث هذا الكتاب في جذور النكتة الحمصية من دون الدخول في تحليل النكات التي تروى عن أهل حمص، إلا ما تقتضي الإشارة إليه.

ISBN 978-9933-540-32-6
9 789933 540326 >
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع